حميد العقابي

التّيهْ

(عَهدُ الشاعر)

مكتبة
حسين السكاف

التّيْه

حميد العقابي

التّيْه

(عَهدُ الشاعر)

التّيْه

حميد العقابي
الطبعة الأولى: ٢٠١٥م
القياس: ١٤,٥×٢١,٥
عدد الصفحات:؟؟؟

دار ميزوبوتاميا

العراق-بغداد-شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٩٠٥١٣٩٩٤١ / ٠٧٧٠٧٩٦٠٧٧١
mazin774@gmail.com
mazin24@ymail.com
hamawendi@yahoo.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

All rights reserved, is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book, or part thereof, or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information, whether electronic or mechanical, including photocopying, recording, or storage and retrieval, without written permission from the rights holders

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

تنفيذ طباعي:
دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت، لبنان

صورة الكاتب في شبابه

ما كنتُ الضائعَ في الطرقاتِ،
ولا النائمَ في الحاناتِ،
لم أدخلْ ماخوراً،
لم أتبعْ ظلَّ امرأةٍ،
لم أسلكْ للعشقِ سبيلا

....

وكذلكَ
لم ترتعشِ الروحُ،
ولم تخشعْ لأذانٍ،
أو شيخٍ يستحلبُ ضرعَ المأساةِ،
ولم أجلسْ في بابِ الله ذليلا

....

أغوتني كتبُ الثورةِ

لكنْ لم اصطحبِ الثوريينَ
وآثرتُ العزلةَ،
عاشرتُ النفسَ طويلا

فقرأتُ الأدبَ الصوفيَّ،
سخرتُ من الحلاّجِ،
البسطاميّ،
وإبن الفارضِ،
نفّرني النفريّ
....

ولكنْ
حينَ وقفتُ أمامَ الضدّينِ
اخترتُ المظلومَ،
اخترتُ الفقرَ،
اخترتُ الغربةَ
واخترتُ أكونُ قتيلا
....

إشارة

يستيقظ الوحيد، والذي يطلق على نفسه (الأعزل) ، جامعاً مفردتين في مفردة واحدة لتدل على تجرده من أي سلاح وكذلك على عزلته التي اختارها لنفسه بعد أن أكمل الخمسين من عمره لا هرباً من الآخرين بل لأنه أدرك أن لا متعةَ تضاهي متعة التطلع من نافذة برجه نحو الساحة المليئة بالناس اللاهثين وراء مبررٍ يجعل حيواتهم ذات جدوى، خاصة بعد أن أنعمت عليه المصادفة بأن أوصلته إلى هذه البقعة النائية والتي منحه أهلها هبات جعلته يستغني عن اللهاث وراء صيدٍ يسد به رمقه. لم يكن حانقاً على أحدٍ ولا سلبياً في نظرته إلى الحياة، بل على العكس تماماً، إذ هو يراقب نفسه بدقة ويحاسبها بقسوة كلما شعر بأن هناك أفكاراً عدمية تحاول الاقتراب من جدار عقله، حتى يبدو أحياناً أمام نفسه بأنه سعيد جداً أو على الأقل راضٍ بما هو عليه. تضيق اللغة أحياناً في وصف مشاعره فهو لم يخطر في ذهنه هذا التفكير حيث أنه استطاع أن يتجرد من الصفات، فالسعادة والرضا أو نقيضهما مفردات يستخدمها حينما يضيق معجم لغته في وصف حالته، إذ هو يراها الآن مفاهيم لم تعد لها دلالة محددة، فهو يعيش الحالة بتجرد مطلق مذ قرر مع نفسه الابتعاد عن دائرة السؤال أو تقسيم اللغة إلى اسم وفعلٍ أو فاعل ومفعول. يرى الشيء لذاته متجرداً في نظرته

عن الغاية أو المصلحة أو المردود النفعي حتى في أدق الأشياء وأكثرها بعداً عن آنيّة المكاسب، فهو مثلاً لا يرى أن جمال الوردة نابع من بهاء تفتحها أو طيب عبقها، وإنما جمالها يكمن في نظرته المجردة لها، والأمر نفسه ينطبق على الخير والشر ورموزهما أو النور والظلام، فهذه أمور يستطيع تلمسها في ذاته هو ويعكسها على مسمياتها، لذا فهو يتعامل مع الأشياء بحيادية مطلقة، متحاشياً الوقوع تحت تأثير السائد من المفاهيم.

الأعزل لغوي ماهر يعرف أسرار اللغة باتقان وهذا الأمر اكتسبه بسبب عزلته أو بسبب نزوعه للعزلة فهو لم يخطر في ذهنه يوماً إن كانت عزلته سبباً أو نتيجة، ولأنه ابتعد عن الحديث الشائع واللغة النفعية تحولت لغته إلى أصوات مكتومة وإنْ نطق فليس لكلامه اتجاه، فحديثه دائماً موجّه نحو الخالق العظيم الذي تفرض محادثته على الأعزل أن ينتقي مفرداته بدقة شديدة، ليس خوفاً من أن يسيء الخالقُ فهمه بل إن المهابة تفرض نفسها عليه. وإنْ كان يرفع رأسه نحو السماء إلا أنه لا يرفعه حيث يقيم الخالق بل لأن فكرة السمو هي التي تجعله ينظر إلى الأعلى وهو يخاطب المطلق في عليائه والبعيد في عزلته. وعلى ذكر الخالق والسماء فالأعزل ليس مؤمناً ولم يفرض عليه الخوف والجهل أن يلتجئ إلى التفسير السهل لمأزق وجوده أو لما يقلقه من أسئلة تنهال عليه كل لحظةٍ، ولكنه اختار السماء كمكانٍ للسمو، قالباً الأمر بين المشتق والمشتق عنه، وهو يعشق الله لا طمعاً بجنته ولا خوفاً من ناره فهذا الأمر لم يخطر في ذهنه أصلاً، وإنما يراه الأنا التي يحلم أن تكون أنيسة عزلته، أناه البعيدة التي لا يراها في المرآة فيعشق مفاتنها، ثم سرعان ما ينقلب عليها بعد أن يكتشف دواخلها وما تخبئ من دناءة وخسة، لذا فهو ينظر إلى الله كخالق ومخلوق في الوقت نفسه.

نعم.. إنه متفذلك بارع يخاف منه الشيطان نفسه، الشيطان الكامن في

التفاصيل، لأن التفاصيل التي يتقن الأعزل حسابها لا تخضع لثنائية الخير والشر بل إنها في حساب الأعزل منجم الجمال السريّ الذي لا يعطي تعزيمه إلا لمتأملٍ تجرّدَ من الصفات التي انتجها الخوض في اليومي السركوس في وحل الغاية والحاجات الآنية.

وسواء أكان الأمر حقيقة أم وهماً، فأن أفكار الأعزل ومواقفه وحكاياته لا تعدو أكثر من كونها لعبةً لاستفزاز المخيلة التي استطاع من خلالها أن يؤسس له حياة افتراضية أكثر رحمةً من حياته الحقيقية في الماضي أو الحاضر، بل هي أكثر جمالاً، فبعد كل حكاية يرويها لنفسها يشعر بأن تياراً سرى في جسده، يزرقه بمصلِ عنفوانٍ يجعل من الحياة في عزلته جديرة بأن تعاش، فأفكاره أو قصصه ليست أفكاراً مجردة بل استطاع أن يجسّدها ويجعل من شخوصها كائناتٍ حيةً تعيش معه ويحاورها، وبدونها يشعر بفراغٍ شاسعٍ، كروائيّ يعيش بأقنعة شخصياته ولا يكتبها.

.... من هنا فأن الأعزل اختار السير في المتاهةِ، لا كشفاً لغموضها وإنما يدفعهُ الشعورُ بغبطةٍ عميقة إلى مواصلة السير متسامياً على الغايةِ، مبتهجاً باللاوصول.

التيه

1

رأيتُ اللهَ في منامي. قالَ لي شامتاً:

«ها أنت قد جئتَ إليّ أخيراً.»

قلتُ:

«هذه حياتي لا تستحقُّ عناءَ العبورِ في مفازةِ الثلجِ المترامية.. إلا أني رأيتُ بعينِ الحدْسِ أفقاً يلوحُ في نهايةِ المفازةِ ورأيتُ قدميّ تسبقانِ إرادتي.»

قالَ:

«أنا أقربُ إليكَ من طرفك.»

قلتُ:

«أينَ الأفق؟»

حينما استيقظتُ شعرتُ بألم شديدٍ في صدري، كأنّ قلبي تورّمَ فضاقَ به الصدر. غرزتُ أصابعي كي أفتحَ القفصَ، فسمعتُ منادياً يصرخُ بي:

«أيها الغافلُ! لا تثقْ بأحلامكَ.. فقد تتحقق.»

2

ضاقَ نَفَسي من دخانِ عزلتي، فقلتُ لأخرج قليلاً لتغتسلَ الروحُ في شمسِ الصحراء. سرتُ هائماً دونما قصد، تارةً أرفعُ صوتي في الغناءِ وأصمتُ تارةً أخرى كأني أستعيد ذاكرتي التي طمستْ سطورَها أصابعُ الغربة. وعلى الرغم من أني تعمدتُ ألا آخذَ بوصلتي كيلا يشغلني الاتجاهُ عن وجهتي ولا يدفعني الخوفُ من الضياعِ إلى التنازلِ عن إرادتي، إلا أني فرحتُ حينما رأيت شبحَ إنسانٍ سبقني في السيرِ على سرابِ هيمانِه، فآنستُ رفقته. قلتُ «لأغذَّ السيرَ وألحق به لعلّي أستطيعُ كسبَه كرفيقِ رحلةٍ وأنيسِ وحشةٍ »، وكأني به قد عرفَ ما دارَ في خلدي فأبطأ سيرَه، وانطوتْ مسافةُ البعدِ ما بيننا بلمحةِ بصرٍ إذ وجدتُني أسيرُ إلى جانبه. لم يلتفتْ إليّ ولم يعرني اهتماماً، فقلتُ له العذرُ فهذا حالُ الغرباء قد استبدّ بهم الضياعُ حتى صار وجهتَهم ودليلَهم، ولهم من التوجسِ ما يمنعهم عن المنادمةِ والصحبة، ولربما هو مثلي لا يريدُ التنازلَ عن إرادتِه وحريتِه في اختيارِ طريقِ ضياعه.

«أخي.. أخي..»

همستُ بصوتٍ حذرٍ حسبتُه لم يخرجْ من حنجرتي، فالتفتَ إليّ

بحركةٍ بطيئة. كان وجهه بلا ملامحَ واضحةٍ سوى عينين واسعتين يشعّ منهما بريقٌ فضي. وحينما لم يجبني بغيرِ التفاتةٍ محايدة لم تترك في نفسي انطباعاً محدداً، حاولتُ كسْرَ الصمتِ بيننا فسألته بجرأةٍ، وربما بفضولٍ:

«أينَ وجهتكَ؟»

تطلعَ إليّ بنظرةِ إشفاق وقد توجستُ منه ترفعاً أو نفوراً، والحق معه حيث أني لو كنتُ محلّه لاحتقرتُ هذا المتطفلَ الذي قطعَ متعةَ تفردي وشاركني الاتجاه الذي سلكتُه، غير أنه كان أرقى وأنبلَ مما ظننتُ وهذا ما زادَ فضولي ورغبتي في صحبته.

«إلى الجبل.»

قالَ وحثّ خطاه بالاتجاه نفسه. تلفتُّ يميناً وشمالاً فلم أرَ جبلاً يلوحُ في الآفاق، فقلتُ في نفسي لعلّه يرى ما لا أراه أو أنه عازمٌ على اجتيازِ خطّ الأفقِ حيث يربضُ هناك على الجانب الآخر جبلٌ، لا يصلُه إلا الضالعون في الضياع، السالكون دروبَ التيهِ نحو المجهول. لم أتورعْ عن إعادة السؤال خاصة وأني قد تورطتُ في الخروج عن ترفعي وارتضيتُ لنفسي دورَ المُريدِ التائقِ إلى المعرفة، ولم أعد أطيقُ صبراً على جهلي.

«ولكني لا أرى جبلاً.»

توقفَ قليلاً وتطلعَ إليّ فبدتْ لي ملامحُه الوديعةُ واضحةً وقد أشاعتْ في روحي السكينةَ والبهجة. لمتُ نفسي على سوءِ الظنّ بالرجل، فتشجعتُ على إغرائهِ للحديثِ بصمتي المهذب ورغبتي في الاستفاضة. اقتربَ مني واضعاً كفّه على كتفي وهو يردد:

«ولا أنا... ولا أنا...»

وقبلَ أن أسأله توضيحاً لكلامه قالَ:

«وأنا مثلك لا أرى جبلاً.. ولكن لابد من الوصولِ إليه.»

ربما أدركَ من خلال نظراتي بأني لم أفهم ما يعنيه فارتفعتْ ضحكته الناعمة كصوتِ ماءٍ رقراق ينسابُ من جبل:

«اعلمْ يا صاحبي.. أن الجبلَ يوجد حيث توجد فكرةُ الصعودِ والارتقاء.»

تطلعتُ إليهِ بنظرةٍ حسبتُها بلهاءَ، فجعلتُها عذراً لأسئلتي. ولكنّ أنايَ انتفضتْ فحاولتْ الانعتاقَ من أسرِ البلادةِ التي قد توحي بها ملامحي. ومجاراةً لطريقته في الكلام وربما استعراضاً لمنزلتي في مقاماتِ العزلةِ وردَّ اعتبار لحالةِ المسكنةِ والتلمذةِ التي تلبّستني قبل قليل، قلتُ بندّيةٍ خجولةٍ وكأن ما نطقَ به أمر بديهي:

«ولكن ليس الجبلُ بقمّتهِ فحسبْ، بل بسفوحهِ كذلك.»

هزّ رأسه كأنه كان يتوقعُ كلاماً كهذا مني، فسألني:

«أتعني الهبوط؟»

فقلتُ:

«أجل يا....»

فردّ بطريقة لا تخلو من السخرية:

«جرّبْ الصعودَ أولاً فإنْ فشلتَ في الوصولِ إلى القمةِ سيكون الهبوطُ نتيجةً حتمية.»

«.........................»

«لا تخشَ شيئاً.. لا تخشَ شيئاً... أغمضْ عينيكَ.. ولحظات وستجد نفسكَ في الوادي...»

وقبل أن أعترضَ على كلامه أضافَ كأنه ينهي حديثاً غير متكافئ:

«لا تأسفْ.. لا تأسفْ»

3

لأجلكَ غافلتُ صحوي واندسستُ في غيمةٍ راحلة. اصطفيتُ التجهمَ مرآةً ومحوتُ أفقي كي أسيرَ على غير هدى. التيهُ أبوابٌ مفتوحةٌ على خواءٍ مطلق أو امتلاء مطلق وهذا ما كنتُ أسعى إليه بعد أن أعيتني غربتي وأجاءتني إليه وحدتي. عاندتُ الصفاتِ والمسميات مصطنعاً الغفلةَ، غفلة العاشق عن مساوئ معشوقه، وعناد مَنْ لا يريد الرجوع عن قراره، بل رضوخ مَنْ لا قرارَ له. استنجدُ بكلّ المفردات كي أؤاخيَ الأشياء والمدلولات فينفرط عقدُ الدالِ على رمالِ الدلالة، وحيث تختزنُ حبّاتُ الرملِ سرابَ المعاني، والعوسجُ أوسعُ مظلةٍ في هذا القفر.

أجئتُ لكي استظلَّ أم رغبة بي تدفعني إلى أعماق المغارة؟.

لم أكن أعلم أنّ المتاهةَ التي بيني وبينكَ هي أنتَ.

4

رفعَ ذبالةَ الفانوسِ قليلاً فأضيئتِ المغارةُ بنورٍ ذهبي ساطعٍ عندها رأيتُ الرجلَ الجالسَ وسط هالةٍ ضوئيةٍ وقد أحنى رأسه يقرأ في كتابٍ كبيرٍ حتى لامستْ لحيتُه البيضاء صفحةَ الكتاب. تراجعتُ خائفاً، فقد كان منظره المتوحشُ يوحي بأنه رجل نسيَه التأريخُ ليبقيه شاهداً من العصور البدائية. أطبقَ الكتابَ ورفعَ رأسه باتجاهي، فلاحتْ لي عيناه الغائرتان في محجريهما وجبهته المجعدة. لم يفاجئه وجودي ولم أتفاجأ بذلك، فهو كما يبدو رجلٌ ماتتْ عنده المفاجأة لكثرة ما رأى. تطلعَ إليّ وارتسمتْ على فمِ المُغطّى بالشعرِ ابتسامةٌ ثم قال بصوتٍ واطئ وهو يهزّ رأسه:

«كنتُ حسبتكَ قد هلكتَ مع الذين طواهم البحر.»

تلفتُّ حولي فلم أجد أحداً غيري في المكان. ارتفعتْ ضحكته وهو يشير إليّ بسبابته:

«وهل تعتقد بقيَ أحد يدفعه الجنونُ إليّ غيرك؟»

«ولكني لا أعرفكَ.»

قلتُ بلطفٍ فارتفعتْ ضحكته ثانيةً وهو يمسكُ طرفَ لحيتهِ الهاطلةِ على صدره العاري. توقفَ عن الضحكِ واتخذَ هيئةً وقورةً لا تخلو من مسحةِ حزنٍ:

«ألم تذكرْ؟ كنّا معاً على ظهرِ السفينةِ التي أوشكتْ على الغرقِ ثم نجونا بمعجزةٍ..لا ليست معجزةً بل هي فطنةُ الشرّ التي دفعتنا إلى ركلِ كلّ المبحرين معناً ثم قدنا السفينة وحدنا...»

توقفَ قليلاً وقبل أنْ اعترضَ كلامه لتوضيحِ الالتباس استأنفَ حديثه بثقةٍ ويقين:

«كنتَ.. أنتَ.. واقفاً خلف الدفّة.. وأنا كنتُ أقف عند القيدوم.. أطوّح بذراعيّ كي أحرِفَ مسارَ العاصفة.»

«ولكني لا أعرفكَ!»

ارتفعتْ ضحكته التي تشبه زئيراً وبلهجةٍ لا تخلو من السخرية خاطبني:

«حدّقْ في الماءِ... ترَني.»

5

أنا صلصالكَ المتمردُ
قلْ ما تشاءُ:
«أنا الآبقُ
الجاحدُ
المتكبّرُ
....»
لكنْ
أنا مَنْ أكونُ ـ
مللتُ العناصرَ
واللعبةَ العبثيةَ
أخرجُ من فرنِ خلقكَ
أخرجُ من طينِ كينونتي
وسأهربُ
أهربُ من قبضةِ الجَبرِ

والأيسِ
والليسِ
أختارُ اسماً جديداً لإسمي
وعزماً جديداً لعزمي
وموتاً جديداً
أنا
هو
أنتَ
أنا هو أنتَ
وقد جاءَ دوري

فكنْ أنتَ في فرنِ خَلقي
وذقْ مرَّ طيني

6

مررتُ في طريقٍ فوجدتُ صخرةً كبيرةً قد سدّته، ولم يبقَ ما بين الصخرةِ والهاوية سوى مسافةِ شبرٍ واحد. حاولتُ أن أزيحَ الصخرةَ قليلاً فلم أفلحْ في زحزحتها. قلتُ «سأبقى هنا أحذّر الغافلين حتى يأتي مَنْ يعينني على رفعها». مرّ هرِمٌ فهرعتُ إليه. سحبَ ذراعَه من قبضتي ناهراً إيّاي وهو يردد بإصرار:

«السقوطُ في الهاوية خيرٌ لي ألفَ مرةٍ من أن أتكئ على ابن آدم.»

ومرّ رجلٌ أعمى فأسرعتُ لمساعدته، غيرَ أنه فعلَ ما فعلَ الأولُ مردداً:

«أنا الطريقُ.. أنا الطريق.»

ومرّ ثالثٌ، وقبلَ أن أقتربَ منه صرخَ بي:

«ابتعدْ عني.. أنا الصخرة.»

....

....

سمعتُ هاتفاً ينادي:

«أولئكَ أحبائي الذين اهتدوا إليّ.»

قلتُ:

«مَنِ الهاوية؟»

7

سمعتُ ضبعاً يرددُ:

«يا إلهي
أنا الضبعَ أسألُ
هل تستحقُّ الحياةْ
أن أكونَ دنيئاً
فأنهشَ ضلعَ الغزالْ؟

يا إلهي
إذا لم أكنْ غيرَ ضبعٍ
لماذا تعذّبني بالسؤالْ»

8

دخلتُ حانةً لا يرتادُها غير الرعاعِ والشذاذِ وقطاعِ طرقٍ، خمرتُها زرنيخٌ وكؤوسها جماجم، فسمعتُ ثملاً ينشدُ:

«أغارُ على نساءِ الأرضِ طرّاً
كأن نساءَ كلّ الأرضِ ملكي
كأني اللهُ غافرُ كلّ ذنبٍ
ولم يغفرْ لمنْ يأتي بشركٍ»

فأدركتُ بأنّ الظلمَ ناموسٌ، فما من مالكٍ لا يظلم.

9

ضبطني النادلُ متلبّساً بالجرمِ، إذ سرقتُ الكوزَ فشكاني إلى صاحبِ الحانةِ الذي حضرَ وسط جمهرةِ السكارى الساخرين بسفاهةٍ مني. تطلعَ إليّ بخجلٍ ثم طأطأ رأسه معتذراً عن فظاظةِ نادلهِ وجهلِ روادِ الحانة، لكنّ اعتذارَه واعترافه بحقي في كوزٍ شربتُ به خمرتي لم يوقفْ صراخَ السكارى ورائي:

«لص... مجنون... أبله......»

10

ناداني صوتٌ واهنُ النبرات كأنه قادم من آفاقٍ قصية أو من أغوارٍ عميقة، أو ربما هو صوتُ شيخٍ يحتضر:

«إلى أين تمضي؟ يا هذا المُزمعُ على الإبحار بعيداً في محيطٍ صاخبٍ بلا شطآن ولا مرافئ، بلا فنارات ولا صوى...»

تسمّرتُ منصتاً للصوتِ الذي راح يطرقُ سمعي بإلحاحٍ نزقٍ، ثم قلتُ معتزّاً بإثم إصراري كأني أقطعُ آخر حبلٍ يشدني إلى الوقوف:

«إلى اللا أين.»

ارتفعتْ ضحكةٌ ساخرة، وعاد الصوتُ يتردد في داخلي في وضوحٍ شديد:

«هل أغراكَ بريقُ لؤلؤةٍ في الأعماقِ أو اطمأنتْ نفسُكَ لهدوءِ الريحِ الآني؟»

قلتُ:

«لا هذا ولا ذاك... ولكني مللتُ الإقامة.»

قالَ:

«وأينَ عدّة إبحارك؟»

قلتُ:

«ما حاجةُ الأعزلِ لعدّة؟... فأنا راحلٌ للكشفِ عن أسرارِ التيه.»

فقالَ مفتعلاً صوتَ الحكمة:

«نصيحتي لكَ يا بُني أن تعودَ من حيثُ أتيت.»

قلتُ بحزنٍ:

«وهل جئتُ من جهةٍ كي أعودَ إليها!؟»

حلّ بيننا صمتٌ كأنّ كلاً منا يئسَ من إقناع مُحدثهِ، فسرتُ بهمّةِ مَنْ حسمَ أمرَه دونما خشيةٍ أو أمل.

11

طلبَ مني التسليمَ فرفعتُ قلبي رايةً بيضاء. قلّبه بين راحتيهِ ثم أعادَهُ إليّ كبضاعةٍ كاسدةٍ وأدارَ ظهرَه. وحينما استنجدتُ به، قال:

«مَنْ يعشقني رهبةً كرهتُه، ومَنْ يبعْ قلبَه بزهدٍ نفرتُ منه.»

ثم اختفى فحسمتُ أمري أن أبقى في هذا التيهِ حتى يمرّ حبيبي، عندئذٍ سمعتُ منادياً يدعوني:

«لقد أفلحتَ يا.....»

فشعرتُ برسيسِ الحبِ لأول مرة.

12

قلتُ:

«من أينَ تبدأُ الطريقُ إليك؟»

قالَ:

«في البدء نكراني.»

قلتُ:

«كيف؟»

قال:

«لا تستغثْ بي فلن أغيثكَ.. ولا تدعُني فلن أجيبكَ.. ولا تتوسلْ بي فأني لا أحبُّ المتوسلين.»

قلتُ:

«وما الحكمةُ من هذا؟»

قالَ:

«ما انفكَّ ابنُ آدمَ يدعوني ولا أجيبُ حتى يدركَ بطلانَ دعوتِهِ وجمالَ تمنعي.»

قلتُ:

«أحكمةٌ أم دلال؟»

ارتفعتْ ضحكته وقال:

«لا حكمةَ في العشق.. بل دلالٌ وتمنعٌ ووجدٌ وجنون.»

13

قالَ:

«العاشقُ لا قرارَ لهُ وليس للعاشقِ عزّة.»

.. وقالَ:

«مَنْ يعشقني يفنَ بسرّي ومَنْ عشقتُه استعبدتُه.»

.. وقال:

«دعاني عبدي لإفراجِ كربتهِ، فقلتُ له يا عبدي ابقَ صابراً أكنْ معكَ فإن فرّجتُ كربتكَ تخليتُ عنك.»

.. وقال:

«العشقُ ذريعتكَ الوحيدةُ للموتِ والموتُ الطريقُ التي تصلكَ بي فمُتْ تلقني.»

.. وقال:

«يا عبدي.. اشهدْ أنْ لا أنا إلا أناْ ولا أنتَ إلا لا أنتَ.»

وقالَ..

وقالَ..

ولكنني إذْ تطلعتُ من قاعِ سجني إليهْ ضحكتُ..
ضحكتُ..
وناديتُ:
«يا سيدي
ألمْ ترَ كيفَ فعلتَ بنا؟»

14

... سائراً بلا اتجاهٍ في أرضٍ رخوةٍ يكاد رملُها يصلُ حدّ الركبتين، ساحلاً قدميّ بعناء، وقد أوشكتُ على الإغماء من التعب، لكنّ داعياً ما يدفعني بلا إرادةٍ مني نحو مجهولٍ حسبتُه كنزاً أو قدراً ينتظرني. فجأةً اصطدمتْ إحدى قدميّ بصخرةٍ غطّاها الرملُ. شعرتُ بدوارٍ وخارتْ قواي فسقطتُ على وجهي. لم تكن صخرة بل فخ قد اقتنص قدمي وراح يسحبها بقوةٍ نحو أعماقِ الأرض. تحاملتُ على ألمي، جاذاً على نواجذي، وبعزيمةِ الغريقِ تشبثتُ بالهواء ورحتُ أسحبُ ببطء ساقي الغاطسة في الرمل، فرأيتُ ما هالني، إذ رأيتُ جمجمةَ إنسانٍ غرزتْ أسنانها في قدمي. حاولتُ انتزاعها فلم أفلحْ، فرحتُ أزيلُ بحذرٍ الرملَ عن جبينها وحفرتيْ عينيها حتى تراخى الفكّان شيئاً فشيئاً كأن ابتسامةً لاحتْ على موضع الفم. سحبتُ قدمي بهدوء، متحفزاً لردةِ فعلٍ أو هجوم مباغتٍ أو تشبثٍ عنيدٍ تُبديه الجمجمة، حتى تحررتُ منها تماماً. فكرتُ في الهرب، غير أن شيئاً ما منعني ربما الفضول لمعرفة السرّ. حملتُ الجمجمةَ بكلتا كفيّ ووضعتها في حجري. أزلتُ عنها بقايا

الرملِ والعفنَ العالقَ في تجاويفها ومن بين العظام. زالَ الخوف من نفسي وشعرتُ باطمئنان، بل شيء من الاستئناس دفعني إلى احتضانِ الجمجمةِ كطفلٍ وديعٍ ورحتُ أناجيها بكلامٍ يخرجُ من أعماقي منمّقاً ببلاغةٍ فرضَها جلالُ الموقف، فشعرتُ بنبضٍ يسري في العظام وقد بدا واضحاً عند موضع الصدغين، وتحركَ الفكّان كأنها تهمّ بأن تقول شيئاً فيمنعها موتُها. قلتُ:

«مَن أنتِ؟»

قالتْ بصوتٍ مُنهكٍ:

«أنا.. شاعرٌ.. مجهول.»

قلتُ:

«وكيفَ وصلتَ إلى اللامكان؟»

قالَ بصوتٍ واضحٍ على الرغم من تلعثمِهِ وبنبرةٍ ساخرةٍ:

«وهل كنتُ يوماً في غير هذا؟»

تزاحمتْ في ذهني أسئلةٌ كثيرة، لكني تريثتُ في طرحها، شاحذاً فطنتي للبحثِ عن أسئلة أخرى تكشفُ لي هويةَ هذا الكائن، غير أنه قطعَ ترددي وأجابني عن السؤال الأهم بقصيدةٍ ربما ظلّ يترنمُ بها منذ لحظةِ رحيله:

«أتعلمُ أجملُ ما في الحياةِ هو الموتُ؟
انظرْ إلى وجهيَ الآنْ
هادئٌ
قانعٌ

غيرُ منفعلٍ بالندمْ
غيرُ منشغلٍ بالسؤالِ الكبيرِ
(إلى أينَ؟)
حيثُ هنا
لا وجودَ لما كان يشغلني في الوجودِ العدمْ»

حملتُ الجمجمةَ ونهضتُ فصرختْ بي:
«لا.»
أعدتُها إلى موضعها الأول وواصلتُ السيرَ نحو المجهول.

15

سمعني أشتمُه في سرّي فاستغفرني فخجلتُ من تهوري وخفّةِ عقلي فقالَ:

«سبحانكَ سبحانكَ، لقد استعبدتكَ بإرادتي وارتضيتَ بي سيداً رغماً عنك، فكان العشقُ ناموسكَ والظلمُ ناموسي.

16

سمعني أردد جهراً «متى يصحو ضميرُ الله؟»، فقالَ:

«أنا مع الصابرين.»

قلتُ:

«الصبرُ بابٌ يفضي إلى العصيانِ أو البَلادة.»

قالَ:

«عاشقي بليدٌ»

قلتُ:

«بئسَ العاشق والمعشوق.»

17

قالَ:

«يمكرونَ وأمكرُ.»

قلتُ:

«أوّل الكفرِ سقوطُ الهيبة.»

18

قالَ:

«ادعُني أجبْ!»

قلتُ:

«جربناكَ.. جربناك»

قالَ:

«ادعُني أجبْ دعوتكَ!»

قلتُ:

«لا شيءَ غير استعادةِ هيبتكَ.»

قالَ:

«كيف؟»

قلتُ:

«بالرحمةِ فحسب.»

قالَ:

«رحمتي وسعتْ كلَّ شيء.»
قلتُ:
«ضاقتْ عن قلبِ العاشق.»

قالَ:
«العاشقُ مُلكٌ لي.»
فضربتُ كفّاً بكفٍّ وقلتُ:
«لم يحنِ الوقتُ بعد كي تدركَ سرّي.»

19

قلتُ:

«عشقتُكَ خمسينَ عاماً ولم أجدِ الرحمةَ في عينيك.»

قالَ:

«الحزانى أحبائي وهم جلسائي عند العرش.»

قلتُ:

«ما الجحيمُ إذن؟»

20

قلتُ:

«كتبتُ قصيدةً فنشرتُها على الملأ متباهياً، وكتبتَني فطمستَ حروفي.»

قالَ:

«صنيعي وأفعلُ فيه ما أشاء.»

قلتُ:

«بئسَ الأب عاقاً بولدهِ.»

21

قلتُ:

«رحلتُ في الأرضِ سنينَ فلم أجدْ لي صاحباً يُسندني ولا صاحبةً تفهمني، فألجأتُ نفسي إلى نفسي، وحدثَ البلاء.»

شعرتُ بكفّ لم أرَها تربّتُ كتفي، وسمعته يقول بصوتٍ يقطرُ أسى وحنواً:

«نفسُ العاشقِ غابةٌ بأشجارها وأنهارها وضواريها، فكيف الوئام!»

22

قلتُ:

«لو لم تقلْ يا عبادي لازدادَ حبي لك.»

قال:

«من بين خلقي عبادٌ يسعونَ إليّ، غايتُهم رضايَ ووسيلتُهم التسليم.»

قلتُ:

«ما التسليم؟»

قال:

«الرجاء. فكلّ آملٍ خائفٌ لا يجدُ أمانَه إلا في التسليم.»

قلتُ:

«مَن العاشق؟»

قال:

«فاقدُ الأملِ، اللائذُ من التيهِ بالتيه، مدفوعاً بقوةِ اليأس.»

تطلعَ إليّ بنظراتٍ عميقةٍ... ثم قال:

«ليس بيني وبين العاشقِ حرفُ نداء.»

23

قالَ لي:
«أيّ صفاتي أحبّ إليك؟»
قلتُ:
«ضعفكَ، فوحقكَ لا جبروتَ بدون غلظة.»

24

ضاقَ صبرُهُ بلومي فقالَ لائماً:

«خلقتكَ مني ومنحتكَ أجملَ أسمائي ولكنكَ آثرتَ الخطيئة.»

قلتُ:

«الخطيئةُ تنزيه لكَ وحريةٌ لي.»

قالَ:

«كلامُ شعراء ضالين؟»

قلتُ:

«ليس للمتاهةِ بابٌ بل هي الباب.»

25

.. وعلى ذكر الشعراء، سألتُه مرةً:

«هل حقاً أنتَ كارهٌ للشعراء؟»

هبَّ واقفاً وارتسمتْ على وجهه علاماتُ امتعاض. قالَ كمَنْ يريد إزالةَ تهمةٍ عن نفسه:

«كيف أكرهُ مَنْ ينطقُ بلساني؟»

توقفَ قليلاً وتطلعَ في عينيّ عميقاً وأضافَ:

«كيفَ أكره مَنْ ينتظرني في نَهَمٍ؟» (*)

(*) إشارة إلى رامبو

26

عرضَ عليّ قاتلي وقالَ:
«جعلتُ لك سلطاناً عليه؟»
قلتُ:
«ما الفرقُ بيني وبينه إذنْ؟»

27

قلتُ له:

«أودعتكَ سرّي فأودعني سرّكَ!»

قال:

«لا سرَّ إلا سرّك.»

قلتُ:

«مَنْ أنا كي تخاطبني بهذا يا ذا العزة والجلال؟»

قالَ:

«لا جلالَ إلا للعاشق. أنتَ عاشق وأنا معشوق وشتانَ ما بيننا.»

قلتُ:

«ولكن أنا صنيعكَ وأنتَ فتنتي!»

قالَ:

«أغبطكَ وأحسدكَ.»

قلتُ:

«أعلى حزني وضياعي؟»

قالَ:

«إن سعادةَ العاشقِ في حزنِهِ أقدسُ عندي من صنيعي وأعظمُ من خلقِ الكون.»

28

قالَ:

«كيفَ تراني؟»

قلتُ:

«.............................

.............................»

قالَ:

«صدقتَ.»

29

قلتُ:

«أعنّي على عقلي!»

قالَ:

«كيفَ؟»

قلتُ:

«أنا نحّاتُ أفكارٍ، إزميلي الرغبةُ وطيني الكلمات. أنحتُ لذّاتٍ لا تتجسدُ، أحلاماً لا تتحقق، ذكرياتٍ متآكلةً بالندم....»

قاطعني صارخاً بي بصوتٍ صارم:

«أعيذكَ من الخيانةِ، فأوّل خياناتِ العاشقِ تجسيدُ معشوقهِ، فمَنْ جسّدني خسرني وخسرَ نفسه.»

قلتُ:

«ولكنّي جسد.»

قال:

«جسدُ العاشقِ روحُه، والرغبةُ نكهةُ السموّ.»

30

قلتُ:

«ما دليلُ الساعي إليكَ؟»

قالَ:

«الحدْس.»

قلتُ:

«ما الحدْسُ؟»

قالَ:

«المسافةُ المضيئةُ ما بين العقلِ والقلب.»

صمتَ قليلاً ثم أضاف:

«مَنْ سعى إليّ بعقلهِ بحثَ عن جدوى وجودي في العلّةِ والسبب فخابَ مسعاه، ومن سعى إليّ بقلبهِ شطّ به الهوى ولكن من زكا عقلُه ورقّ قلبُه انتقى بحدْسهِ برهةَ السموّ وارتقى إلى الجماليةِ، فعَشِقَ.. ففازَ.»

31

استبدَّ بي شبقي ليلةً واشتدّ هياجي حتى بكيتُ من حرقةِ شهوتي. ناديتُ:

«إلهي من قاعِ مُجوني أدعوكَ؟»

وحينما لم أجدْ استجابةً من لدنهِ، صرختُ:

«إيلي.. إيلي.. لِما شبقتني؟»

32

سمعني أهمسُ في أذن الأرضِ «يا عاهرتي»، فأشاحَ بوجههِ عني. حجبتُ وجهي بكفيّ خجلاً، وتمنيتُ لو أن القدرةَ تُفلتني لأقعَ في الوادي. زحفتُ على ركبتيّ نحوه حتى صرتُ عند قدميه. رفعني من كتفيَّ، فلمحتُ علامةَ غفرانٍ في عينيه. قلتُ محاولاً تبريرَ خطيئتي:

«لي جسد ماجنٌ يخرجُ أحياناً عن حدودِ قدرتي على التحكم.»

هزّ رأسه مبتسماً وقال:

«لا بأسَ عليكَ... لا بأسَ عليك.»

ثم أضافَ:

«شدّةُ الباهِ عند العاشقِ من قلقِ روحهِ ولوَبانها.»

33

قلتُ:

«قيلَ لا يصلُ إليكَ الساعي حتى يتركَ نفسَه.»

قالَ:

«قولُ كذّابين أدعياء، فما الضيرُ لو جاءوا إليّ بأنفسهم؟ لكنهم أرادوا من الوصولِ إليّ حجةً للتباهي والترفعِ على الخلق.»

نطّ طفلُ الفرحِ في داخلي إذْ كنتُ ولا أزالُ أرى نفسي أنيسةَ عقلي، رغباتُها رغباتي ولَذّاتُها لذّاتي ورِفعتُها رفعتي، ولا غنى لي عن صحبتها. هي أنا، هي أنا بعهرِها وعفّتها.

أدركَ ما دارَ في ذهني فقالَ مُطَمئِناً:

«إذا رأى الحبيبُ عيباً في حبيبِهِ فلعلّةٍ في نفسِهِ وفظاظةٍ هي أبعد ما تكون عن روحِ العاشقِ وخلقهِ وأريحيته.»

صمتَ قليلاً ثم استأنفَ كلامَهُ بخلاصةٍ فحواه:

«ما العشقُ إلا إتحادُ الكلّ بالكلّ.»

34

قال لي:

«أنتَ عاشقٌ وأنا معشوق، والعاشقُ أفضلُ من المعشوقِ بدرجةٍ هي ما بين الأرضِ والسماء، فالعاشقُ باطنُ الصفاتِ والمعشوقُ ظاهرها، وللمعشوقِ أسبابُ ظهوره وليس للعاشقِ غير سرّهِ ونقاءِ سريرتهِ.»

وحينما وجدني صامتاً أتطلع إليه ببلاهةِ الحائر، أضافَ:

«ما بين العاشقِ والمعشوقِ هوّةٌ لا يردمُها إلا إدمانُ الغفلة.»

35

ضبطني متلبساً بالرغبةِ، فقال:

«لكلّ رغبةٍ شجرةٌ محرّمة.»

قلتُ:

«أنا الغابة.»

قال:

«ألا تخجلُ مني؟»

قلتُ:

«لا يخجلُ الوليدُ من عريهِ أمامَ عينِ القابلة.»

36

سألني في لحظةِ سمرٍ وصفاء:

«مَنْ القائلُ: نفسي عاهرةٌ سليطةُ المجاز؟»

قلتُ:

«أنا القائلُ.»

قالَ:

«وعزّتي لو أن في عبادي ألفاً من هاتيكَ النفوس لجعلتُ بيتي ماخوراً.»

ثم وبحسرةِ حزنٍ أضافَ:

«أنا المجاز.»

37

قالَ:

«أيّ الأسماءِ ألذّ على شفتيكَ؟»

قلتُ:

«القُبلة.»

قالَ:

«وماذا؟»

قلتُ:

«القُبلة.»

قالَ:

«وماذا؟»

قلتُ:

«القُبلة.»

قالَ:

«أدلالٌ منكَ؟ أم عناد؟»

قلتُ:

«لا هذا ولا ذاك.»

قالَ:

«سألتُ عبادي كلهم فقالوا الذِكر إلا أنتَ.»

قلتُ:

«إنهم يهربون إلى الكلّ كي يبرروا جهلهم، فهم أصغرُ من أن يروا كنهَ الشيء في ذراته. أعشاهم الخوفُ وأضلّهم النفاق.»

طأطأ رأسه حتى كادتْ لحيته تلامسُ الأرضَ ولاحتْ على مُحياه غمامةُ حزنٍ، فرحتُ أدندنُ بأغنيةٍ حسبتُها تخرجه من الحالة التي هو فيها:

«إنْ تُفصل القطرةُ من بحرِها
ففي مداهُ مُنتهى أمرِها
تقاربتْ يا ربُّ ما بيننا
مسافةُ البُعدِ على قدرِها»

فلاحتْ على وجهه ابتسامةُ زهوٍ حتى راح يهزّ رأسه طرباً.

38

... وكأنه قد استعذبَ حديثي إذ رفعَ رأسَه عن الأرضِ وسألني سؤالَ مَنْ يفتعلُ الأريحيةَ أو مَنْ يتوقُ للمزيدِ من الإطراء:

«ما وجه الشبهِ بين القُبلةِ والقِبلة؟»

قلتُ:

«كلاهما اتجاه لا يُشارُ إليه.»

ثم أضفتُ بخبث:

«لا تسألْ عن معنى القُبلةِ فالمعنى في قلبِ العاشق.»

قالَ:

«وما وجهُ الشبهِ بين القُبلة والذِكر؟»

قلتُ:

«كلاهما معنى لا يُسمّى بغيرِ المجازْ ولا يُنطق بغيرِ الصمت، ولا يوصف إلا بالشعور. وكلاهما باطنٌ يُفسدُه ظاهرُه، وإخفاؤه أنبلُ من البوحِ به. وكلاهما تراه العينُ وهي مغمضة.»

حينما أنهيتُ حديثي تطلعَ إليّ مستنكراً فاستدركتُ:

«كلاهما برزخ لفناء الفردانية بثنائيةِ الخلق واتحاد العاشقِ والمعشوق.»

قال:

«صدقتَ»

39

قلتُ:

«أغافلٌ هو الضالُ أم شرير؟»

قالَ:

«الضالُ هو مَنْ لم يبرحْ مكانَه.»

صمتَ قليلاً، وكأنه تذكر أمراً هاماً فقال:

«أُحبّ السابحَ فيّ لا المُسبّحَ لي، وأُحبّ الساعي في دربٍ وعرةٍ لا الواصلَ من دربٍ مطروقة، وأَحَبّ الساعين إليّ مَنْ سلكَ رُدباً.» (١)

وحينما وجدني مصغياً إليه باهتمامٍ ارتسمتْ على شفتيه ابتسامةٌ حانيةٌ وراح يردد:

«أُحبّ المتوكلَ بي لا المتوكئَ عليّ.»

(١) الرُدب: هو الدربُ التي لا تنفذ، الطريق الأعمى.

40

قالَ غاضباً:

«كذِبَ الأنبياءُ وإنْ صدقوا، فأني لم أقرِئْ أحداً، ولم أنطقْ حرفاً إذ خلقتُ الإنسانَ وبلبلتُه فصارَ لكلّ امرئ لغةٌ لا يعرفها سواي.»

حينئذٍ خطرَ في ذهني سؤالٌ ولكني ترددتُ في طرحه، فقال:

«اسألْ ولا تخفْ فلكلّ عاشقٍ مصيرٌ لا يغيّره إلا قلبه، وللخاسرِ إرادةٌ لا تُحد.»

فقلتُ:

«وماذا عنهم.....؟»

قالَ:

«اصطفيتُ أحدهم رحمةً فاصطفاني ضغينةً وطغياناً واصطفيتُ الثاني سلاماً وأخوّةً فاصطفاني حرباً وعدواناً واصطفيتُ......»

توقفَ عن الكلامِ برهةً فظننتُ أنه ندمَ على ما باحَ به، غير أنه قالَ:

«إلا أحدهم، اصطفيتُه فهربَ مني.»

فقلتُ مازحاً:

«وفضّلَ جوفَ الحوتِ على ملكوتكَ.»

صمتَ ولاح حزنٌ في عينيه حتى شعرتُ بأن الندمَ ينخره، فقلتُ:

«وماذا عن...؟»

قاطعني قبل أن أكملَ سؤالي إذ قالَ:

«اصطفيتُه حبّاً فاصطفاني شهوةً.»

فقلتُ:

«ما الضيرُ من ذلك؟»

صمتَ مستفَزاً وكأن سؤالي أحرجَه أو أني تجاوزتُ حدودَ التهذيب، فقلتُ لأنبهه إلى شيء قد نسيه أو ربما تناساه:

«أليس للنفسِ فجورُها وتقواها؟»

قال:

«بلى.»

ثم أضاف موضحاً:

«لا يكتملُ الشيءُ إلا بنقيضه.»

قلتُ:

«وماذا عنك؟»

لاحتْ عليه علاماتُ غضبٍ فقالَ بتحدٍ:

«أنا الكلّ في الكلّ.»

41

قلتُ:

«هلاّ أعطيتَ للموتِ اسماً واضحَ المعنى؟»

قالَ:

«وهل عرفتَ معنى واضحاً للحياة؟»

وحينما رأى خيبتي من جوابِهِ، أضاف كمَنْ يطمئنُ جهلي بلغزٍ آخر:

«هل كنتَ تعرفُ قبل الولادةِ شيئاً عن الحياة؟»

قلتُ:

«كنتُ جنيناً.»

قالَ:

«ومازلتَ في رحمِ الحياة جنيناً.»

تطلعَ إليّ بنظراتٍ تغور في داخلي كأنه يروزُ قدرتي على تحمّل عبءِ السرّ. كاد يبوحُ لي لولا أنه غيّر رأيه لسبب أجهله. همّ بتركي فتشبثتُ بأذياله. تطلعَ إليّ بنظرة تعجبٍ وإشفاق، فقلتُ بلهجةِ المتوسل، التائق لمعرفة المزيد:

«ما الأبدية؟»

لاحتْ على وجههِ ابتسامةُ سخرية، وقال:

«ترددون المفردةَ ولا تعوون معنى لها.»

شعرتُ بشيءٍ من السخطِ لطريقتهِ في الإذلال، فقلتُ:

«ألا تغفرُ جهلي يا غافرَ كلّ ذنب؟»

هزّ رأسه بكبرياء وقال:

«الأبديةُ هي أن تحيى موتكَ.»

قلتُ:

«كيف؟»

قالَ وكأنه يحاولُ إنهاء الحديث:

«متْ... تعِ.»

وقبل أن يغادرَ التفتَ إليّ، وبنظراتٍ باردةٍ قالَ:

«لا تخفْ.. لا تخفْ.. في الموتِ لا وجودَ للوجودِ أو العدم.»

42

ذهبَ وتركني واقفاً على حافةِ الأرض، أتطلع تارةً في الهاويةِ وتارةً أرفعُ رأسي إلى السماء، فأرى ما بين الهاوية والسماء فراغاً مرعبَ القسمات. كانتْ بي رغبةٌ في إطلاقِ صرخةٍ توقظُ الأحجارَ من صمتها والأمواتَ من سباتهم، بل توقظُ البارئَ من اعتكافه.

سمعتُ صوتاً هامساً في أذني:

«في أيّ أرضٍ تحلّ

حدّقْ إلى السماءْ

تجدْ بناتِ نعش»

43

رآني أقضمُ تفاحةً بشراهةٍ، فلاحتْ على شفتيهِ ابتسامةُ خبثٍ، أدركتُ مغزاها، وقالَ:

«مَنْ شابهَ أباه فما ظلم.»

قلتُ بسخريةٍ دون أن أرفع رأسي إليه:

«كان ذاك في عهدٍ قديم.»

قالَ:

«والآن؟»

قلتُ:

«لكي تشرقَ شمسُ الغوايةِ في ليلِ آدمَ، لا إبليسَ.. لا تفاحة.. ولا.... بطيخ. قميص يشفّ عن جمرتينِ ولباسٌ أبو الخيط يحيي العظامَ وهي رميم.....»

انفجرَ بضحكةٍ مدويةٍ كأنها بركان، وراح يضحكُ ويضحكُ حتى انقلبَ على ظهرهِ رافساً.. راكلاً السماءَ برجليه.

44

فاضتْ كأسُ الأريحيةِ وطابتْ نَفْسُ حبيبي، فغنّى الوجودُ كلُّه. البحيرةُ هادئةٌ تغني صمتَها والنسرُ يفردُ جناحيه محتضنا الفضاءَ، يعلو ويهبطُ راقصاً ببراءةِ عصفور. الأشياءُ تنعتقُ من أسرِ تجسّدها سابحةً في لازوردٍ لا محدود، لتغدو أفكاراً حرّةً في فضاءِ المعنى المطلق....

فجأةً انطلقَ النسرُ كسهمٍ نحو الأسفلِ، سريعاً.. سريعاً حتى ارتطمَ بصفحةِ الماء البيضاء، ثم ارتفعَ وفي منقارهِ سمكةٌ تتلوى.

نشازٌ واضحٌ في البناء الموسيقي كأن وتراً قد انقطعَ. توقفتِ الكماناتُ عن العزفِ وارتفع صوتُ الطبولِ وحده. نهضتُ مرتبكاً وأنا أردد بحسرةٍ:

«كيف لي أنْ أكونَ مُحايداً؟»

45

فِي غفلةٍ منه، تسللتُ إلى مكتبتهِ الضخمة لعلّي أكتشفُ السرَّ. رفوفٌ تحمل كتباً غطّاها الغبارُ وأخرى بألوان لم أرها من قبل. لفتَ انتباهي كتابٌ ضخم، عنوانه مكتوبٌ بخطّ الثلث (كنْ) . سحبتُه بحذرٍ ورهبة. نفضتُ الغبارَ عنه فسمعتُ خفقَ أجنحةٍ وحفيفَ غاباتٍ بعيدة. قلّبتُ الأوراقَ فلم أرَ غيرَ البياض. أعدتُ الكتابَ إلى محلّه ولذتُ بالفرار.

46

دخلَ عليّ فوجدني أغنّي:

«غريبة الروح...

غريبة الروح...»

فقالَ:

"بين يديّ وتشعر بالغربة؟»

قلتُ:

«أروّضُ موتي بالغناء.»

ارتسمتْ على وجهه علاماتُ حزنٍ عميق واغرورقتْ عيناه. حاولَ أن يقولَ شيئاً فتلعثمتْ الكلماتْ. غادرني منكسِراً.

47

دخلتُ عليه فرأيته يبكي وقد غطّى نورُ الدمعِ لحيتَه. وقفتُ متسمراً أمامه ثم انفجرتُ بالبكاء. مسحَ لحيتَه وسألني:

«أشفقةً تبكي أم خيبة؟»

قلتُ:

«لا هذهِ ولا تلك، بل جمالُكَ أبكاني.»

48

قلتُ:

«أرني ما وعدتَ به المؤمنين!»

قالَ:

«وهل وعدتُهم بشيء؟»

قلتُ:

«هكذا قال أنبياؤكَ فإما تؤكدُ الأمرَ وإما تنفيه.»

قالَ:

«مَنْ لم يستعذبْ عذابَ العشقِ يعذبْه خواءُ الجشع.»

قلتُ:

«وماذا عن الجنةِ والنار؟»

قالَ:

«لو وضعتُ جنتي في جفنِ الطامعِ بها لن يراها، ولو وضعتُ جهنمَ في قلبِ الزاهدِ أطفأها.»

قلتُ:

«وماذا عن الغافلين؟»

قالَ:

«ما فازَ مُرابٍ في العشق.»

49

قلتُ:

«لِمَ تظلمُ العاشقين؟»

قالَ:

«بمَ ظلمتهم؟»

قلتُ:

«بالفراق.»

قالَ:

«لو حلّتْ لحظةُ فراقٍ واحدةٍ بين العاشقِ والمعشوق لانهارَ الناموسُ.»

قلتُ:

«كيفَ وهم في فراقٍ دائم؟»

قالَ:

«لم يفترقوا، لكنهم لم يدركوا تجلياتِ الحبيب.»

تركني وحدي جالساً على حافة الأرض فأصغيتُ إلى عزفٍ على الناي لم أسمعه من قبل.

50

قلتُ:

«اختلفَ الخلقُ ومازالوا مختلفين حول الجَبرِ والاختيار؟»

قال:

«لأنهم لم يتأملوا ما حولهم.»

صمتَ قليلاً ثم مدّ يده إلى خَرجِهِ فأخرجَ طيراً، وضعه على راحةِ كفّه المبسوطة وهو ينظر إليّ مرتقباً ردة فعلي. وحينما طار الطيرُ محلّقاً في الفضاء بنشوةٍ، راح يرقبه حتى صار نقطةً بيضاء. التفتَ إليّ وقالَ:

«كيفَ يطيرُ الطيرُ؟»

قلتُ:

«بما قُدّر له.»

قال:

«لا.»

وحينما وجدَني صامتاً أبحثُ عن إجابةٍ ترضيه، قال:

«الطيرُ ليس بجناحيهِ، بل شهوة الطيران.»

51

تركني لأمرٍ ما، فرحتُ أتجولُ على غير هدى. أوقفني أحدُ السدنةِ. تطلعَ إليّ مستغرباً وجودي في اللامكانِ، وسألني:

«مَنْ أنتَ؟»

قلتُ:

«عابرُ لا سبيل.»

قالَ:

«وكيفَ دخلتَ إلى مملكةٍ لا يدخلها إلا الضالعُ بالـ......»

قلتُ:

«أنا الضالعُ بالـ......»

52

رآني سارحاً أحدّق إلى العلوّ اللانهائي. قالَ:

«ليس البُعدُ مسافةً، وليس القُربُ مسافةً بل الهجر والوصال.. فللعاشقِ بُراقٌ يعرّجُ بهِ إلى ملكوتِ العشقِ أنّى شاء قلبُه وفنارهُ نورُ المحبة.»

صمتَ قليلاً ثم، وبنبرةٍ أقربُ إلى التأنيبِ منها إلى النصيحةِ، قالَ:

«لا تطمعْ بالومضةِ بل بالبرق!»

53

قالَ متذمراً:

«سياحتي في قلبِ العاشقِ أطولُ من سياحتِهِ في قلبي.»

قلتُ:

«ولكن شتّان بينهما، فسياحتُكَ زهوٌ وسياحتُه حبّ.»

صمتَ حتى شعرتُ بأنه خجِلٌ من ضيقِ فطنتِهِ، فوجدتُ الفرصةَ سانحةً لي كي أكسرَ شوكةَ غرورِه. قلتُ:

«لو لم تقلْ لا أنا إلا أنا وانتظرتَ أن يقولها العاشقُ لتزدادَ هيبتُكَ ويزدادَ حبُّه.»

قالَ:

«ولكن اختلفتِ الرعيةُ في درجاتِ الفطنة.»

قلتُ:

«الرعيةُ أم الرعاع؟»

54

قلتُ:

«أيغارُ عاشقوكَ؟»

قالَ:

«الغيرةُ ضميرُ الجسد، فمَنْ عشقني بجسدِهِ أحرقتُه بنارِ الفراق.»

صمتَ فجأة كأنه غيرُ واثقٍ من كلامِهِ، فاستدركَ بلهجةِ غنجٍ أنثوي أثارتْ استغرابي:

«ولكنّي أغارُ على عشّاقي.»

قلتُ ما بين الجدّ والهزل:

«كيفَ وأنت بلا جسدٍ؟»

قالَ:

«دلالُ المعشوقِ لا ينفد.»

55

قالَ:

«أتراني أخطأتُ بشيءٍ؟»

قلتُ:

«أجلْ.»

فارتعشَ العرشُ وزُلزلتِ السماءُ وأبرقتْ، فشعرتُ بخوفٍ من جفوةٍ لا أطيقُها وغضبٍ لا أستحقه، لكني اعتصمتُ بحبلِ عشقي وتمسّكتُ بعروةِ صدقي، وقلتُ:

«حبلُ فتنتكَ أغلظُ من حبلِ وصلكَ، ودلالُ تمنّعِكَ أكبرُ من لهفةِ عاشقكَ، وعزّتكَ أولى عندكَ من غِناكَ.»

وحينما وجدتُه صامتاً مُصغياً إلى كلامي باهتمامٍ، وتّرتُ قوسَ حزني ورميتُ أهزُعي (١) نحو سويداءِ القصد، وقلتُ:

«وفوقَ هذا وذاك، جئتُكَ كما قالَ أبو يزيد.»

(١) الأهزع: السهم الأخير في الكنانة.

56

قلتُ:

«أسماؤكَ صفاتٌ أم صفاتكَ أسماء؟»

قالَ:

«وكيفَ تراني؟»

قلتُ:

«لا أراك.»

قالَ:

«صدقتَ، حينما أتجلّى لعاشقي تسقط بيننا الأسماءُ والصفات.»

ثم أضافَ:

«حينما يراني العاشقُ لا يراني.»

57

فاجأني بكلامٍ لم أكنْ أتوقعه، حين قالَ:

«لكلّ امرئ شيطانُه، وأنا شيطانُ العاشق.»

لم أدركْ معنى قوله، إلا أني تظاهرتُ أمامه بأنّ ما قاله ليس جديداً، فقلتُ:

«وكيف السبيل إلى النجاة من سطوةِ الشيطان؟»

قال:

«بالاستعاذة.»

لكنه استدركَ الأمرَ سريعاً إذْ قال:

«عبادي يستعيذون بي فأعيذهم، واستعاذةُ عاشقي القربانُ.»

كانت هذه المرة الأولى التي يرد فيها ذِكرُ القربان في حديثنا، وقد كنتُ قبلذاك أشعرُ بالسخطِ والاشمئزازِ من هذه الكلمة، فقلتُ:

«وأيّ قربانٍ يفي بوعدِ العشق؟»

قالَ:

«الصليب.»

شعرتُ بنفورٍ وغضبٍ لم أسعَ إلى كتمانه فأدركَ ذلك. قالَ:
«عَزَّ المطلبُ وما من مكانٍ في الوجودِ يَسَعُ طهارةَ اللقاء.»

58

جلستُ تحت شجرةٍ وارفةِ الضياء، خلتُها سماءً ثامنةً، أغصانها تحملُ أنجماً تشعُّ عطوراً ورذاذها موسيقى.

قال:

«هي سدرةُ المُبتغى.»

قلتُ:

«ولكنْ لِمَ لم أشعرْ بمسرّةِ الوصول؟»

قالَ:

«المسرّةُ ليستْ ردةَ فعلٍ آنيةً. المسرّةُ نهايةُ المطاف، فمَنْ استبقَ أوانَها افتقدها ومَنْ تأخرَ عنها خابَ مسعاه.»

تطلعَ إليّ، وبلهجةٍ آمرةٍ أضافَ:

«كنْ صابراً حتى تتخلصَ النفسُ من طباعها الأرضية!»

قلتُ:

«ومتى تتخلصُ النفسُ من فظاظةِ طبعها؟»

قالَ:

«حين تصيرُ الإرادةُ صليباً.»

59

قالَ:

«المستقيمُ نقطةٌ في هندسةِ العشق.»

قلتُ:

«لم أفهم.»

قالَ:

«صراطُ العشقِ نقطة.»

ثم أضافَ:

«طريقٌ بلا صوى. ينتهي حيث يبدأ ويبدأ حيث ينتهي، ولا مجالَ فيه للندم.»

شعرتُ بألمٍ وغمّ شديدين فقلتُ متشبثاً بآخر خيطٍ للأمل:

«... ولكن أين رحمتكَ؟»

قالَ:

«الرحمةُ للضعفاء، والعاشقُ ندُّ معشوقه.»

60

وقفتُ على ربوةٍ تطلّ على سهلٍ شاسعٍ، رأيتُ جموعاً من البشر يمشون وقوفاً، لا هم بمقبلين ولا مدبرين، فسألتُ:

«مَنْ أولئكَ الهائمون على وجوههم، المقيّدون دونما قيود؟»

قال:

«أولئكَ عبادي الساعون إليّ بغير حبّ؟»

قلتُ:

«كيفَ يعبدكَ مَنْ لا يحبكَ؟»

قال:

«قلْ كيفَ يعبدني مَنْ يحبني.»

61

رآني مهموماً، شاردَ الذهن. تطلعَ إليّ مستفسراً، فقلتُ:

«اشتقتُ إلى.....»

قاطعني وقال بحنوّ:

«لا تمجّدْ نخلةً بسعفها تُجلدُ. لا تمجدْ بيتاً سكنَ الغدرُ فيه.»

ثم أشارَ إليّ محذراً:

«إياكَ والحنين، فالحنينُ مشاعرُ أتلفها الاجترارُ وسفّهتها الدهماءُ ولا تليقُ بعذريةِ روحِ العاشقِ ونضارةِ مسعاه.»

وحينما وجدني صامتاً أضافَ بحَسم:

«وطنُ العاشقِ قلبُه، وشوقه لا تحدّه مخافرُ أو حدود.»

62

قالَ:

«العاشقُ مقيمٌ في غربتِهِ، أرضهُ سماء وسماؤه أبعدُ من خطّ البصيرة.»

قلتُ:

«وماذا عن الماضي؟»

قالَ وكأنه كان بانتظارِ سؤالي:

«العاشقُ بلا ماضٍ، فهو يكسرُ مراياه التي احتفظتْ بوجههِ قبل أن يرحل.»

ثم قالَ:

«انظرْ!»

نظرتُ في مرايا السديمِ فلم أرَ غير وجهِ حبيبي.

63

قلتُ:

«كان لي صاحب من أهلِ الفسقِ والفجور. تابَ فجأةً وحجّ البيتَ غير أنه عادَ غاضباً وأكثرَ فسقاً وفجوراً. وحينما سأله البعضُ عن الأمر قالَ حججتُ البيتَ صادقاً بتوبتي، ساعياً لرضا الله وغفرانِه، وحينما وقفتُ مع القوم أرمي الجمراتِ لم تصبْ رميتي، فقيلَ له كيف حدثَ ذلك قالَ كلما رميتُ جمرةً ارتدّتْ عليّ.»

ارتفعتْ ضحكته حتى كاد يشرقُ بصوتهِ، وهو يرددُ:

«ما نالَ رضايَ سواه.»

قطعَ ضحكته كأنه تذكرَ أمراً هاماً، وقال:

«مَنْ يزرني في البيتِ ينلْ الخيبةَ قِرى والحسرةَ جزاء.»

64

قلتُ:

«رأيتُ أخا الجهالةِ في نعيمٍ، ورأيتُ السافلَ في نعيمٍ، ورأيتُ القاتلَ في نعيمٍ...»

قاطعني مردداً مع نفسهِ:

«ليس النعيمُ نعيماً.»

فأكملتُ لومي دون أن أعيرَ اهتماماً لما قاله، إذ قلتُ:

«.. فأدركتُ أن ظلمكَ أزليٌّ وقد فاقَ الظلمَ كلّه.»

تطلعَ إليّ ثم هزّ رأسه بأسفٍ وقال:

«سبقَ الحَيفُ الأمل.»

غادرني دون أن يلتفتَ إليّ.

65

قلتُ:

«ما ظنُّكَ بمَنْ صلّى فسَها، وصامَ وأفطرَ على الطَّلى، وحجَّ فَلَها، وزهدَ فاستغنى فما زكّى، وجاهدَ عاشقاً فأطربَ إذْ غنّى...»

قاطعني وقد أومضتْ في عينيه دمعتان، وقال:

«هذهِ صفاتُ صفوتي من العاشقين.»

وكأن كلامي أطربَه فنسجَ على منوالِهِ إذْ قال:

«هؤلاءِ أحبائي فهم في جنةِ الرؤيا * في مسرّةٍ قصوى * في سُكرةِ النشوى * عند سدرةِ المُشتهى*»

66

قلتُ:

«مَنْ أحبُّ بني آدمَ إلى نفسكَ؟»

قالَ:

«أناسٌ لم يعرفهم غيري. عشقوا وكتموا السرّ حتى هم أنفسهم لم يدركوا أني اصطفيتُهم فلم يكُ هذا مسعاهم. لم يسمع بهم أحد فهم بلا أسماء ولم يَرَهم أحد فهم بملامحَ لا يراها مَنْ يرى ما يُرى، هم عطرُ النغمِ وموسيقى الطيْب....»

قلتُ:

«ومَنْ أبغضهم؟»

تطلعَ إليّ بنظرةِ خجلٍ، وقالَ كأنه يبرّئ نفسَه من تهمةٍ:

«إنّ كلّ قطرةِ دمٍ تسفحُ عثّةٌ تنخرُ في العرش.»

وكأنه أدركَ خبثَ ما أنوي قوله فتركني وغادرَ هارباً.

67

قلتُ:

«أحكمةٌ أم عبث تقديركُ للأعمار؟»

كانَ شاردَ الذهنِ، ينظرُ إلى زاويةٍ بعيدةٍ حتى حسبتُه لم يسمع سؤالي أو أنه تجاهله عمداً موحياً إليّ بصمتهِ هذا بأني قد تجاوزتُ حدودَ المسموح، غير أنه تطلعَ إليّ بعمق وقال:

«الخلقُ ثلاثةُ أصناف. عاشقٌ يشتاقُ إليّ فآخذ بيده، وكافرٌ يشتاقُ إلى العدمِ فيذهب إليه، وما بين هذا وذاك عبدٌ بلا إرادةٍ يصلُ إلى أرذل العمر حتى تلفظَه نفسُه جزعاً أو قرفاً.»

قلتُ:

«وماذا عن طفلٍ يموت جوعاً؟»

تطلعتُ إليه بزاويةِ عيني وأضفتُ ساخراً:

«عاشقٌ أم كافرٌ أم...؟»

هبَّ غاضباً دونَ أن ينطقَ بحرفٍ.

قالَ:

«هل أشركتَ بي؟»

قلتُ:

«أجلْ. حينما سمعتُ أصواتَ الضحايا ارتفعتْ تستغيثُ بكَ ولم تجدْ من لدُنكَ إصغاء، بحثتُ عن إلهٍ جديد.»

قالَ:

«ألم تدركْ أن لي في ذلكَ حكمةً؟»

تطلعتُ إليه بسخريةٍ واستخفافٍ بما قاله، وقلتُ:

«ما نفعُ حكمتكَ المضمرة؟ أتُشبعُ جائعاً؟، أتُشفي مريضاً؟، أتفكُّ قيدَ أسيرٍ؟، أتؤاسي ثكلى أو يتيماً؟...»

صمتَ ولاحتْ على وجههِ علامات خجلٍ، ولكن حينما انتبهَ إلى أنه قد أبدى أمامي ضعفاً ما كان يجب أن يبديه، قالَ مكابراً:

«إن أغلبَ الناسِ لا يدركون.»

شعرتُ بأني قد قسوتُ عليه فأشفقتُ على ضعفه وقلّةِ حيلته. حاولتُ

أن أعيدَ إليه قليلاً من ماء هيبته، فقلتُ مبتعداً عن اللومِ والتأنيب:

«أيكفي للمرءِ أن يقولَ إني جهلتكَ فتغفر له؟»

وكأنه استعاد كبرياءه وتذكر جبروته، إذ قال:

«الجهّال أصناف، منهم مَنْ يعتز بجهله، ومنهم مَنْ يتغافلُ عن جهله، ومنهم مَنْ يوهمه جهلُه بالعلم أو التفقهِ، وصنفٌ يتقلبُ على فراشِ جهله كالطيرِ المذبوح.»

صمتَ قليلاً ثم أضافَ باعتداد:

«للأخير القُربُ وللبقية الغفران.»

هززتُ رأسي مفتعلاً الامتثال، حيث أني ما أردتُ الإطالة في الحديث، فقد شعرتُ بأنه متورطٌ في خلقه، وأنه يدركُ ذلك لكنه لا يعترف.

69

استبدّ بي شعورٌ شلّ قدرتي على الاستمرارِ في المحاورةِ، وساورني شكّ في صدقِ نيتي على المخاطرة، فقد شعرتُ بيأسٍ من الوصول ونفاد طاقتي على النفاذ إلى مكنونِ حبيبي. استيقظتْ أنايَ وانتعظتْ رغبتي في الخروجِ من دهاليز منفايَ ومأزق عزلتي حتى رغبتُ في غنيمةِ الإيابِ هروباً مما أنا فيه. ناديتُ «حبيبي» فارتدّ إليّ الصدى وصرختُ «الغوث» فلم أسمع سوى صوتِ استغاثتي، فأدركتُ بأنه قد تخلّى عني. وبينا أنا أجوس دهاليز جوسق الارتقاء بحثاً عن مخرجٍ للهبوط إذ رأيتني واقفاً في صالة كبيرة عُلّقتْ على جدرانها أوراقُ اعتمادِ مَنْ سبقني. رحتُ أتطلع إليها لعلّي أعثر على من كنتُ أظنه أهلاً لبلوغ الأوج، وقد كانت في ذهني أسماء كثيرة لأنبياء وأولياء ومتصوفة وأحبار، فلم أجد من بينها أحداً.

70

قالَ:

«أقربُ أحبائي إلى نفسي مَنْ فاقَ كرمُه كرمي وسبقَ عزمُه عزمي وسارَ إليّ عاشقاً قبل دعوتي إليه.»

قلتُ:

«ومَنْ هو ذو الحظ هذا؟»

قال:

«القائلُ:

حين وقفتُ أمام الضدينِ

اخترتُ المظلومَ

اخترتُ الفقرَ

اخترتُ الغربةَ

واخترتُ أكونُ قتيلا»

71

سمعني أرددُ مع نفسي مترنماً:

«يخرجُ العاشقُ للمنفى ولكنْ لا يعودْ
حينما ينقلبُ المعنى إلى الضدّ
وتشتاقُ الحشودْ
لترابِ الوطنِ الفاتنِ....»

قاطعني ناهراً:
«ليس للعاشقِ منفى إذْ ليس للعاشقِ وطن.»
ثم أضافَ مؤنباً إيّاي:
«الوطنُ مكانٌ والمنفى مكانٌ والعاشقُ روحٌ هائمةٌ في اللامكان.»

72

قلتُ:

«بماذا يُغنيكَ أن ترى الصبَّ ساهداً يتلظى، وأنتَ تجهرُ بتمنعِكَ ودلالك؟»

قالَ:

«أوّلُ غيثِ العشقِ دمعة.»

ثم أضافَ:

«بيني وبين عاشقي تيهٌ، فمَنْ يلقني قبل التيهِ استعبدتُه، ومَنْ اجتازَ التيهَ إليّ عشقته، وصار أنايَ الظاهرةَ للخلق.»

قلتُ:

«إذنْ لابد من تيهٍ لكي ألقاك!»

قالَ:

«أنا تيهكَ وأنت تيهي.»

73

قالَ:

«الضلالةُ هبوطٌ حرّ نحو قاعِ المجهول.»

قلتُ:

«لا مجهولَ إلا أنتَ.»

قالَ:

«صدقتَ. فمَنْ ضلَّ اهتدى إليّ.»

74

رأيتُه مهموماً، يُديرُ إبهاميه حول بعضهما ويتطلع إلى زاويةٍ بعيدةٍ. قالَ لي:

«هل تشاركني؟»

قلتُ:

«بماذا؟»

قال:

«بلعبةِ الاحتمالات؟»

تطلعتُ إليه لأختبر صدقَ سؤاله، فقد خطرَ في ذهني أنه يُدخلني اللعبة لاختباري، أو أنه يضمر لي في نفسه شيئاً. قلتُ:

«على أية حالٍ هاتِ ما عندك!»

قال:

«هنا قاتل وقتيل، كانا قد اختصما على حصتهما من الهواء.»

قلتُ:

«أما كان بإمكانهما أن يتفقا على العدلِ في القسمة؟»

قالَ:

«بلى.»

ثم أضافَ بشماتةٍ واضحة:

«لو كان لهما قليلٌ من العقلِ الذي طالما افتخرا به لأفسدا عليّ اللعبةَ منذ البداية، لكنهما تخليا عنه لحظةَ الاقتسام، وحدثَ الذي حدثَ.»

قلتُ:

«وهل كنتَ على الحيادِ في أمرهما؟»

قال وابتسامة خبثٍ تعلو شفتيه:

«أريدُ أن أطمئنَ إلى مصيري.»

قلتُ:

«لم أفهمْ، أيّ مصيرٍ تتحدثُ عنه؟»

قالَ:

«بالعقلِ أرادا هزيمتي، لكنهما نسياه لحظةَ الاقتسام.»

انفجرَ بضحكةٍ مرعبةٍ فتطلعتُ إليه وأنا في حيرةٍ من أمري، غير أن شعوراً بالحقد ارتفع منسوبه في نفسي، فقلتُ:

«لنعدْ إلى لعبة الاحتمالات!»

توقفتُ قليلاً وأنا أتطلع في عينيه بحقدٍ مستفزٍ، ثم أضفتُ:

«ماذا لو اتفقا على قسمةٍ عادلةٍ؟»

قالَ دون أن يلتفتَ إليَّ:

«عندها سأنقِص كميةَ الهواء؟»

فعرفتُ أيّ شيطانٍ يختفي تحت جلبابِ الرحمة، وأيّ أحمقَ متدثراً بالحلم.

75

دخلَ عليَّ فوجدني أشربُ خمراً. نظرَ إليّ باستغرابٍ وقال:

«أعاشقٌ وسكيّر!؟»

غيرَ أنه أسرعَ نحوي كأنه فَطِنَ لأمر ما. رفعَ الكوز. أمعنَ النظرَ في فخّارهِ وزخارفهِ، ثم أعاده إليّ معتذراً، وقال:

«كلّ وعاءٍ ينضحُ بما فيه إلا كوزُ العاشقِ فهو كاتمُ أسرارَ خمرته.»

76

قلتُ:

«كأسي معي فأين النديمُ؟»

قالَ:

«ما حاجتُكَ للكأسِ إنْ حَضَرَ النديم؟»

قلتُ:

«أمضُّ حزنٍ على قلبِ العاشقِ ألاّ يكتملَ الحبّ.»

هزّ رأسه انتشاءً أو تشفياً، وراحَ يتمتمُ بكلامٍ لم أفهمه.

77

قلتُ:

«هل يشعرُ العاشقُ بالملل؟»

قالَ:

«أجلْ، حينما تكون غايته الوصول.»

قلتُ:

«وماذا يبغي العاشقُ أبعدَ؟»

قال:

«للوصولِ تخومٌ وعشقي لا يُحد.»

ثم أضافَ:

«كلّ شيء نسبي إلا العشق فهو مطلق.»

قلتُ:

«ما أَحبُّ الصلاةِ إليكَ؟»

قالَ:

«الموسيقى.»

صمتَ قليلاً ثم أضافَ:

«بها يدركُ المرءُ التناغمَ في الأشياء، ولا يُعرفُ كُنهُ الشيءِ إلا في تناغمه.»

«..................................»

«في الموسيقى تكمنُ الحقيقةُ المطلقة... وأنا الحقيقة المطلقة.»

تطلعَ إليّ فأغمضتُ عينيّ متتبعاً حركةَ نيازكَ تهبطُ ببطءٍ شديدٍ إلى قاعِ عتمتي. شعرتُ بيده تلامسُ كتفي، وبصوتٍ هامسٍ قالَ:

«أصغِ! من الماءِ خُلق كلّ شيء حي، وما الماءُ إلا تناغمُ عنصرين.»

حاولتُ النطقَ إلا أن حشرجةً في عنقي منعتني، وشعرتُ بالدمعِ قد غطّى لحيتي. هزّ رأسه مبتهجاً وهو يردد:

«دموعُ العاشقِ غدرانٌ في جنتي ومصابيحُ أنواري... أنغامٌ يرددُها الوجود.»

79

قلتُ:

«لماذا تحمّلُ خلقَكَ ما لا طاقةَ لهم عليه؟»

قالَ:

«كلّ شيءٍ هيّنٌ حينما يُدركُ سرّي.»

قلتُ:

«وكيفَ يُدركُ سرُّكَ؟»

قالَ:

«سرّي شاخصٌ للقاصي والداني فهو حقيقتي المتجسدة أمام كلّ ذي بصيرة.»

صمتَ قليلاً، ثم أضافَ موضحاً:

«كلّ حقيقةٍ جمالٌ، فمَنْ ذا الأعمى الذي لا يرى جمالي؟»

قلتُ:

«لا يرى الجمالَ إلا العاشق.»

توقف عن الكلامِ متأففاً موحياً لي بأنه يخاطبُ مَنْ هو غير كفء لخطابه، غير أنه عاد وخاطبني بلهجةٍ لا تخلو من لومٍ وترفع:

«ما عنيتُ المطلق، فجمالي يكمنُ في كلّ مخلوقاتي.»

قلتُ كأني أرد الاعتبار لنفسي:

«ولكن لا يكتملُ الشيءُ إلا بنقيضه!»

قالَ:

«إلا الحقيقة، فهي جمالٌ مكتملٌ بذاته.»

هززتُ رأسي بإعجابٍ، متطلعاً إليه بخشوعٍ حاثاً إياه على الاستفاضة. قال:

«لكلّ شيءٍ قرينٌ، ولكلّ شيءٍ نقيض، وكل شيءٍ زائلٌ إلا الحقيقة، ليست مُحدثةً ولا زائلة، وجامعة للصفاتِ الموجبة.»

توقفَ قليلاً ثمَ أضافَ موضحاً:

«المحبةُ حقيقةٌ فهي ثابتة والبغضُ زائل... الرحمةُ حقيقةٌ فهي أبديةٌ والجبروتُ زائل...»

قلتُ مقاطعاً:

«مَنِ الشيطانُ إذنْ؟»

تبسمَ مُشفِقاً وغادر.

80

قالَ:

«أتعرفُ ما الصراطُ المستقيم؟»

قلتُ:

«أمعنىً أم كناية؟»

تجاهلَ سؤالي كأنه لم يسمعه، وقال:

«الحيرةُ هي الصراطُ المستقيم.»

صمتَ قليلاً ثم أضاف:

«الساعون إليّ حيارى، فمنهم مَنْ يخذله شوقُه وتبرّحه الحيرةُ فيجد في جزعهِ مبرراً للنكوصِ ليرتدّ رحمةً بنفسهِ فيلهو، ومنهم مَنْ يستطيبُ حيرتَه ويُنعشه ارتقاؤه فيسمو.»

تطلعَ إليّ بعينين صارمتين...... وقال:

«إنْ لم يكنِ الحائرُ عاشقاً فلن يطيقَ عذابَ حيرتهِ.»

81

سمعتُ عزفاً على شبّابةٍ فقادتني نفسي باتجاهِ الصوت. رأيتُ صبياً يجلسُ على حافةِ الأفقِ مُدلياً ساقيهِ في الهاوية. دنوتُ منه بحذرٍ فلم يشعر بوجودي. جلستُ على صخرةٍ قريبةٍ منه مُصغياً إلى عزفهِ ومتطلعاً إليهِ وقد أحاطته هالة ضوئية تدور حولها فراشاتٌ بنفسجيةٌ كأنها كواكب دانية. توقفَ عن العزفِ والتفتَ إليّ. همّ بقولِ شيء لكنه امتنعَ، فبادرتُ بالسؤال:

«أينَ قطيعُ أغنامكَ؟»

ارتفعتْ ضحكته حتى شعرتُ بالخجلِ من تطفلي، واستبدّ بي نفورٌ من وقاحةِ غرورهِ. أشاحَ بوجههِ إلى الجهةِ الأخرى وقالَ كأنه يخاطبُ نفسه:

«ما أغباكم! لقد التبسَ الحقُّ عليكم فرأيتم الوجودَ في جدواه، وما الجدوى إلا ما تشتهي نفوسكم الوضيعةُ وعقولكم الصغيرة.»

استيقظَ في نفسي حقد حتى خطرتْ في ذهني فكرةُ إسقاطهِ في الهاوية، لكني استدركتُ الأمر، بعد أن لامستْ كلماتُه شغافَ روحي.

دنوتُ منه أكثر وبلهجةِ مُريدٍ يطمعُ بالمزيد من المعرفة قلتُ بتذللٍ:

«ولكن أين يكمنُ سرّ الوجود إنْ لم يكمنْ في جدواه؟»

تطلعَ إليّ بنظراتٍ مُشفقة وأجابَ:

«ليس للوجود علّة أو سبب.»

صمتَ قليلاً كأنه ينتظرُ أن استوعبَ ما قاله ثم أضاف:

«لا يكمنُ سرّ الوجودِ إلا في جماله.»

وقبل أن يتركَ لي فرصة للتفكير قال كأنه ينهي الحديث:

«.. والجمال سرّ الأسرارِ الذي لا يُباحُ به ولا يُدركُ إلا بالتجرّدِ، وَلاغائيةُ الغاياتِ التي تكمن في التفرّدِ.... ولا يراه إلا العاشق.»

رفعَ شبّابته ثانية متهيئاً لمواصلة العزفِ فنهضتُ بتثاقلٍ، وقبلَ أن انسحبَ من المكانِ التفتَ إليّ، وبصوتٍ آمرٍ خاطبني:

«أصغِ! ترَ قطعانَ النورِ تملأ حقلَ روحِك.»

82

رآني ساهداً أتقلّبُ على جمرِ حيرتي، فقالَ:

«ابتكرْ فجراً!»

قلتُ:

«كيف؟»

قالَ:

«خذْ قطعةً من هذا الليلِ واصقلْها بروحِكَ، سيقدحُ ألمُكَ فيُلهبُ الرغبةَ فتضيءُ الإرادة.»

وحين رآني ساكناً، قالَ مُحرّضاً:

«كلّ عاشقٍ مبدعٌ، وما الإبداعُ إلا قدْحُ حَجَريِّ الألمِ والنشوة.»

تطلعتُ إليه بزهوٍ فهزَّ رأسه مردداً بيقين:

«سيكونُ فجراً... سيكونُ فجراً..»

83

قلتُ:

«إذا كانتْ غايةُ العاشقِ الوصولَ إلى حبيبِهِ فما غايةُ المعشوق؟»

قالَ:

«الوصولُ إلى قلبِ العاشق.»

لاحتْ على وجههِ علاماتُ حزنٍ عميق فأدركتُ بأن العشقَ قد برّحَ العاشقَ والمعشوق. تطلعَ إليّ بصمتٍ، ثم قال:

«يُخجِلني سعيُ العاشقِ إليّ، فلو وهبتُه عرشي وملكوتي لما جزيتُ وفاءَه بالمِثْلِ ولا أنصفتُ مسعاهُ بالفعلِ.»

قلتُ:

«مَنْ يطلبْ جزاءَ عشقهِ ليس بعاشقٍ....»

قاطعني مردداً:

«وهذا ما يُخجلني أكثر.»

84

قلتُ:

«ما الفرقُ بين جمالكَ وجلالك؟»

قالَ:

«جمالي غبطةٌ وجلالي وجْد.»

ثم قالَ:

«حدِّقْ إلى لازوردِ السماء! وأصغِ إلى عصفورٍ يغني في الغابة....

ترني.»

85

قلتُ:

«ما الفرح؟»

قالَ:

«الإيثار... فالحيازةُ عبءٌ وعبودية، والتخلي إرادةٌ حرة.»

صمتَ قليلاً ثم قالَ مُنبِّهاً:

«لا تدخلِ الغابةَ هرباً! لا تغوِ طائراً بالصفير!...... كنْ غصناً!»

قلتُ:

«ما الحزنُ إذنْ؟»

قال:

«مَنْ عشقني عفّتْ نفسُه فلم يجد الحزنُ إليها منفذاً.»

ثم أضافَ:

«وجْدُ العاشقِ فرحٌ لا متناهٍ.»

سمعتُ عاشقاً يقولُ:
«عشقتُ جمالَه فرأيتُ كلَّ شيءٍ قبيحاً، وأكبرتُ كمالَه فصار غايةَ مسعاي.»
قالَ آخرُ:
«عشقتُ جمالَه فرأيتُ كلّ شيءٍ جميلاً، وأكبرتُ كمالَه فاستغنيتُ بِهِ عن مسعاي.»
قالَ ثالثٌ:
«لا الجمالُ ولا الكمالُ غايتي، بل سعيتُ لذاته.»
قال رابعٌ:
«أجاءتني إليه حيرةُ نفسي.»
فقلتُ:
«عجباً، وهل للعشقِ سببٌ؟»
ورحتُ أترنمُ بأغنيةٍ أثيرةٍ على نفسي:
«ما عشقناكَ للجمالِ ولكنْ
أيا عين
نحنُ قومٌ إذا نَظَرنا عَشِقنا
أيا عين»

87

سمعني أغنّي:

«نامتْ قلوب الناس فمنْ يُنيمُ قلبي...»

تطلعَ إليّ بصمتٍ محايدٍ، ثم قالَ:

«ألا ترى كيف أنّ برعماً صغيراً أيقظَ قلبَ الحجر؟»

قلتُ:

«بلى، ولكن كلّتْ قدرتي وأشقاني الحرمانُ.»

قالَ:

«لو نامَ قلبُ العاشقِ لحظةً لماتَ الحب.»

88

قالَ لي:

«لِمَ لا تفرحُ وأنتَ بقربي؟»

قلتُ:

«القربُ مسافةٌ فاصلةٌ، وأنا أشتاقُ لنفسي.»

89

قالَ:

«أيطمحُ العاشقُ إلى أبعد من الوصال؟»

قلتُ:

«أجلْ.»

تطلعَ إليَ مستفزّاً كأن في جوابي ما يغيظه، فأضفتُ:

«الوصولُ إلى المعنى.»

حدّقَ إلي بنظراتٍ باردة أشعرتني بالخجلِ من بلاهةِ ما قلتُ فتطلعتُ إليه بنظرةِ اعتذارٍ تطمح إلى مزيدٍ من المعرفة، فقال:

«لا معنى للمعنى.»

وحينما أدركَ بأني مازلتُ لم أعِ القصد، أضاف موضحاً:

«لا شيء بعد العشقِ سوى الجنون، وفي الجنونِ ذروةُ المعنى.»

هززتُ رأسي ممتثلاً لما سمعتُه فراحَ يردد:

«أنا الجنون.. أنا الجنون.. أنا المعنى.. أنا لامعنى المعنى.. أنا.. أنا.. أنا.......»

90

رآني ساهماً أحدّقُ إلى الأفق. اقتربَ مني وراحَ يتطلعُ في الاتجاه نفسه. التفتُّ إليه فرأيتُ ابتسامةَ حنوّ وإشفاق، كأنه يعرفُ ما يدورُ في ذهني، منتظراً مبادرتي بالسؤال. فقلتُ:

«ماذا بعدَ الأفق؟»

ارتفعتْ ضحكتُه وراحَ يربتُ على كتفي، قائلاً:

«ما تحسبُه أفقاً هو تخمُ البصر ونهايةُ القدرةِ على الاستشراف.»

تطلعَ إليّ بنظرةِ تأنيبٍ مردداً بديهيةً غابتْ عن ذهني:

«ليس للكمالِ أفق...»

91

انقطعَ عني بعد جفوةٍ فشعرتُ بغمّ شديد، جعلني أفكرُ بأنْ أرمي نفسي في الهاوية، وهذا ما عزمتُ عليه. خرجتُ مفجوعاً حتى أصبحتُ على مشارفِ الوادي فسمعتُ منادياً يهتفُ بي:

«توقفْ!... أنتَ حبيبي.»

قلتُ:

«أضناني الهجرُ وأذلّني دلالُك.»

قالَ:

«لِمَ لم تدعُني فأجيب دعوتك؟»

قلتُ:

«إنْ دعوتُكَ صرتُ مثلهم.. وإنْ استجبتَ بعد دعائي سقطتْ هيبتكَ ونكثتَ عهدَ العشق.»

92

قالَ وكأنه يريدُ اختباري:

«أنفيُ الذاتِ ارتقاء أم نكوص؟»

قلتُ:

«الذاتُ ملكوتُ العاشق، وعلى مرآتها ينعكسُ الجمال.»

تطلعتُ إليهِ لاختبرَ وقعَ كلامي، فرأيتُه ينظرُ إليّ بحيادٍ، فأضفتُ:

«العبدُ مَنْ ينفي ذاتَه... لا العاشق.»

قالَ:

«ولكن هذا يخالفُ سننَ الأولين!»

قلتُ:

«لستُ من سلالتهم، فما أنا بصوفيٍّ مهووس ولا بعابدٍ مستكينٍ إلى وهمِ يقينهِ.»

تطلعَ إليّ بنظراتٍ لا تخلو من الترفعِ والسخرية، فقلتُ مؤكداً:

«لولا ذاتي ما بدا جمالُكَ ولولا جمالكَ ما تجلّتْ قدرتُك.»

قال:

«ولكنّ جمالي مطلقٌ!»

قلتُ:

«هكذا يتجلّى في عينِ العاشق.»

تطلعَ إليّ بذهولٍ كأنه فوجئ بكلامي، فقالَ بإصرارٍ وغرور:

«أنتَ صنيعي وأنا خالقك.»

قلتُ بهدوءٍ وتواضع:

«وأنتَ صنيعي وأنا خالقك.»

93

شدَّ قبضتيه كأنه يعتصر الأرضَ، وكأن بركانين قد تفجرا في عينيه.

تطلعَ إليَّ وسألني:

«ماذا يمنعُ عبادي من السعيّ إليّ؟»

قلتُ بهدوء:

«لا يسعى إليكَ إلا حرّ؟»

تراختْ قبضتاه شيئاً فشيئاً، فأضفتُ:

«لم يروا منك شيئاً يدعوهم للسعيّ إليكَ فالعبدُ لا يرى من سيدهِ غيرَ سوطٍ يلهبُ ظهره وشفقةٍ أقسى من السياط.»

تطلعَ إليّ بنظراتِ ذهولٍ أقرب إلى الغضبِ منها إلى الإنصات، وقال:

«من لم يرضَ بعبوديته لي لن يدركَ وحدانيتي... ومن لم يدركْ وحدانيتي يجحد بي... ولن أغفرَ لمَنْ يشركُ بي.»

قلتُ:

«كلامُ جبّارٍ منّان... لا يزيدُ العبدَ إلا حقداً ونفوراً.. فأنّى له أن يعرفَ العشقَ مَنْ أوهنته أصفادُ الذلّ والضغينة؟»

تطلعتُ إليهِ عاتباً فأحنى رأسه ليخفي ما يمورُ في داخله، وقد أُفتضح غضبُه أمامي وبانتْ نقاطُ ضعفه، فقلتُ موآسياً:

«لا يسعى إليكَ إلا مَنْ يتحسسُ جمالكَ ويستأنسُ بكمالكَ فيلتمسُ رضاكَ طوعاً طامعاً بمسرّةٍ وصالكَ.»

افترتْ شفتاه عن ابتسامةِ رضا، حاولَ أن يخفيها. شجعني هدوؤه وإنصاته فأضفتُ بثقةِ الواثقِ وكبرياءِ الحكيم:

«يعبدكَ العبدُ ويتمنى لو لم تكُ موجوداً.. ويعشقكَ الحرّ لأنكَ غايةُ وجوده.»

تطلعتُ إليه لأرى وقع كلامي فرأيته شاردَ الذهنِ يحدقُ إلى نقطة بعيدة، فغادرتٌ متسللاً بهدوء.

94

أوقفني قائلاً:

«كلّ أوليائي طلبوا رؤيتي لتطمئنَ قلوبُهم إلا أنتَ.»

قلتُ:

«هم طلبوكَ في ناسوتِهم وأنا رأيتُكَ بعينِ العدم.»

ثم أضفتُ:

«لو رآكَ العاشقُ بأمّ عينِهِ لما أطمأنَ قلبُه، فنفسُ العاشقِ قلقةٌ لا يسعُها مقامٌ ولا يُرضيها حالٌ، لذا تراها ساعيةً أبداً في مَرْجِ بحرينِ من ماءٍ ونار.»

تطلعتُ إليهِ فألفيتُه ينظرُ إليّ بزهوٍ وإعجاب، وهذا ما شجّعني على الاسترسال:

«قَدَرُ العاشقِ أن تسعى نفسُه محترقةً إلى ماءِ خلقها، فبالنارِ وحدها عُمّدَ العاشقُ، ومنها تحلّقُ عنقاءُ أبديتهِ.»

95

ضاقَ حلمُه بإلحاحي ونزقي فقالَ:

«ماذا تريدُ مني؟»

قلتُ بسخريةٍ مُرة:

«وهل عندكَ شيءٌ تعطيه؟»

تطلعَ إليّ بغضبٍ مكشّراً عن أسبابِ جبروته، وقالَ باستخفافٍ:

«ما الفرقُ بينكَ وبينَ مَنْ سبقكَ إليّ؟»

قلتُ بهدوءٍ مبالغٍ فيه:

«هم طلبوا الصعودَ إليكَ وأنا طلبتُ النزولَ بكَ. هم أرادوكَ لهم بدون منافسٍ وأنا أردتكَ للخلقِ جميعاً. هم أرادوا حيازةَ رحمتكَ لهم وأنا أردتُ الرحمةَ ناموساً.»

لم أستطعْ الاستمرارَ في تمثيلِ دورِ الهادئ المتروي، فقلتُ بغضبٍ صادق:

«هم بحثوا عن جدوى وجودهم فيكَ وأنا أبحثُ عن جدوى وجودكَ فيّ.»

وقبل أن أغادره قلتُ:

«هم آمنوا بكَ تملقاً وأنا كافرٌ بك حنقاً.»

96

رأيتُني واقفاً على قمة جبلٍ، وكان على يميني وادٍ وعلى شمالي واد. رأيتُ جموعاً من البشر ينحدرون، فاشتقتُ إلى الانضمام إليهم ولكن لم أكنْ واثقاً أيّ الواديين سأختار، فسمعتُ هاتفاً يصرخُ بي:

«كيفَ لمَنْ وصلَ القمّةَ يختارُ الانحدارَ؟»

قلتُ:

«مللتُ عزلتي.»

قالَ:

«النكوصُ خيانة.»

قلتُ:

«والعزلةُ انتحار.»

97

قلتُ:

«ماذا بعد الوصول؟»

قالَ:

«اللقاء.»

قلتُ:

«وماذا بعدَ اللقاء؟»

قالَ:

«التجلي.»

قلتُ:

«وماذا بعد التجلي؟»

قالَ:

«العناق.»

قلتُ:

«وماذا بعد العناق؟»

قالَ:

«الاتحاد.»

قلتُ:

«وماذا بعد الاتحاد؟»

قالَ: «الفناء.»

قلتُ:

«وماذا بعد الفناء؟»

قالَ: «المسرّة.»

قلتُ «وماذا بعد الـ....»

وقبلَ أن أكملَ سؤالي شعرتُ بأن صوتي غاضَ وأخذتني سِنةٌ فرأيتُني سابحاً في العدم.

98

قالَ:

«.. وها قد بانتْ سَوءاتي أمامكَ، فما أنتَ فاعل؟»

قلتُ:

«أمزقُ وصيتي.»

قالَ:

«مَنْ يكتبِ المحوَ يمحُه ثم يكتبه ليمحوه وهكذا، فهو كحاملِ الصخرةِ إلى الذرى.»

قلتُ:

«إذنْ سأبقى أغنّي حتى لو لم أجد آذاناً صاغية.»

قالَ:

«فزتَ من حيثُ لا تدري. لن ينالَ رضايَ من سعى إليه.»

تطلعتُ إليه بحيرةٍ، فأضافَ:

«لا يسعى العاشقُ إلى رضا معشوقه بل مدفوعاً بقوةِ العشق.»

99

دخلتُ عليه مودّعاً فرأيتُه صامتاً وقد ظهرتْ على وجهه علاماتُ تعبٍ وشيخوخة. قلتُ مستغفراً:

«اللائمُ حائرٌ والمعاتِبُ مضطرٌ ضاقَ صبره....»

قاطعني بإشارةٍ من يدهِ، وقال:

«إنْ تكنْ عاشقاً أو معشوقاً.. خالقاً أو مخلوقاً لن تنجوَ من الضجرِ ووجعِ الرأس.»

ضحكتُ في سرّي شامتاً بهِ، فتطلعَ إليّ بنظراتٍ محايدةٍ ونهضَ بتثاقلٍ. ودون أن ينطق بحرفٍ أدارَ إليّ ظهره وغادرَ محدودبَ الظهر، كسيراً. وقفتُ أتأمله وهو يبتعد شيئاً فشيئاً حتى غابَ تماماً، حينئذٍ وجدتُني واقفاً عند جدارِ الأفق.

على جدار الأفق لوحةٌ كُتبَ عليها:

«أيها الظامئ، ليسَ السرابَ ما ترى... بل السرابُ في حاجتكَ إلى الوهم.»

100

قيلَ لي:
«كيفَ هو الحبُّ؟»
قلتُ:
«صاعقةٌ أضاءتْ ظلامَ روحي وأحرقتني.»

آب ٢٠٠٨
فايله / الدنمارك

حميد العقابي

بعض من السيرة الذاتية

قدم الكاتب حميد العقابي نفسه في أكثر من ثوب، شاعراً وقاصاً وروائياً، إلا أنه في كل مرة يحاول أن يظهر بوجه جديد يحمل ملامح المرحلة التي ألّف فيها كتابه الجديد. فمنذ مجموعته الشعرية الأولى (أقول احترس أيها الليلك)، حاول العقابي أن يبني جملته الشعرية من وجهة نظره هو، الأمر نفسه مع القصة والرواية، حتى أصدر كتاباً في السيرة الذاتية (أصغي إلى رمادي) الذي يعد أحد أهم المؤلفات ضمن "أدب الاعتراف"، والذي كان فيه صريحاً مع نفسه أولاً قبل أن يكون صريحاً مع الآخرين، فكشف عن علاقاته الشخصية، وتحدث عن حياته وعن عائلته كما لم يتحدث قبله بصراحة وصدق، وهو ما أثار مشاكل كبيرة مع أسرته ومدينته التي ولد فيها (الكوت 1956).

غادر العقابي العراق منذ العام 1982 هرباً من الموت المجاني الذي سحق الكثير من العراقيين، وليتمكن من قول ما يريد بحرية كان يبحث عنها، فاستقر به الأمر في الدنمارك في العام 1985 ليشكل منطلقاً جديداً في كتاباته وآرائه وطريقة تفكيره. العقابي الذي لم ينشر في العراق إلا نصوصاً قليلة في منتصف ونهاية السبعينيات بسبب الظروف التي كان يمر بها المثقف العراقي، إلا أنه انطلق بعد وصوله للدنمارك فأصدر عدداً من الكتب في أجناس أدبية مختلفة.

منذ ولادته في مدينة الكوت، إلى هجرته نحو كوبنهاغن حيث استقرّ منذ العام 1985، لم يكن فيها إلا كاتباً متميّزاً يتلقف القرّاء أعماله حال صدورها.

صدق وموسوعية العقابي وجرأته، تجلّت في أكثر مؤلفاته، في الشعر والرواية والقصة القصيرة والسيرة الذاتيّة. ولعل كتابه المعروف «أصغي إلى رمادي». يشير لنا بواحدة من الميزات التي يتّصف بها مع جمع محدود آخر من الروائيّين العراقيّين، هي تفكيك العلاقات والبنى المعقّدة بين مفهوم التسلّط ممثّلاً برمزه الأعلى «الدكتاتور»، وبين ضحاياه وهم يتقلّبون على جمر العيش في «الوطن الكبير.«

وطن وجده سجناً أو معتقلاً، فالبطل في روايته ضحية، يجول بهاجس ثأري: «ها هي روحي وحدها تطوف في المدينة... تبحث عن قاتلها أو قاتليها لتقتصّ منهم». يتحسّس الكاتب تبعات الظلم وظِلال القتلة وهي تمتدّ بحرائقها إلى ما بعد عقود من زوالها وسقوطها، وهو بالضبط ما حصل ويحصل عراقياً.

إلى جانب الاشتغال الروائي الذي أصدر فيه خمس روايات هي «الضلع» (2008 . الجمل)، و«أقتفي أثري» (2009 . دار طوى)، و«الفئران» (2013 . الجمل)، و«القلادة» (2016 الجمل)، و"المرآة" (2015 ميزوبوتاميا) أنجز أيضاً العديد من المجموعات الشعريّة من بينها: «أقول احترس أيها الليلك» (1986)، و«بمَ التعلل؟» (1988)، و«تضاريس الداخل» (1994)، و«الفادن» (2005)، و«صيد العنقاء» (2014)، و«التيه» (2015) و "القطار" (2017).

وفي مجال القصة القصيرة، أصدر العقابي مجموعتين قصصيتين، "ثمة أشياء أخرى" (2004 دار نينوى) و"يؤثث الفراغ ويضحك" (2017 الهيئة المصرية العامة للكتاب).

في مجموعة «صيد العنقاء»، يعبر العقابي إلى منطقة شعريّة يبرز فيها حساسيته في اللغة والمعرفة، دونَ ضجيج أو تكلّف، بمحاورة شاعر وعلامة مثل محمد إقبال (1877– 1938)، ليصارح في مقدّمته القارئ بأنّ لهذا الشاعر الهندي الذي يستدعيه سلطاناً عليه، فراح يستعيده ويناكف مواقفه وارتحالاته، ومنها قصيدة يخاطب بها إقبال من كوبنهاغن: «رجلٌ في الخمسينَ من العُمرْ/ يجلسُ في واجهةِ الماخورِ كتمثالٍ/ غطّى قبعةَ الرجلِ الثلجُ/ ومعطفُه البالي لا يسترُ ساقيهِ/ ظننتهُ قوّاداً أو شحّاذاً/ لكنْ، حينَ دنوتُ/ وجدتهُ يحملُ إعلاناً/ وأمامهُ قبعةٌ ملأى بالأوراقِ النقديةِ/ يجمعُ أموالاً لجياعِ الصُومالْ .»

في كتابه «التيه (عهد الشاعر)» الصادر عن «دار ميزوبوتاميا» في بغداد. أحاديث ساحرة بين العاشق والمعشوق، بين الله والعبد، بين الروح وشكوكها... تنهيدات سخّرها في مئة نصّ عن عزلته وانكفائه الذاتي إلى أعماقه، مع الإعلان عما في دواخل النفس من تمرّد وشك، لتكون كتابة تستمدّ نضجها من قيمة التأملات التي تحتضنها تلك التجربة. هنا أحد المقاطع العميقة التي ضمّتها قصيدة «صورة الكاتب في شبابه»: «أغوتني كتبُ الثورةِ/ لكنْ لم اصطحبِ الثوريينَ/ وآثرتُ العزلةَ،/ عاشرتُ النفسَ طويلاً/ فقرأت الأدبَ الصوفيَّ،/ سخرتُ من الحلاجِ،/ البسطاميِّ،/ وابن الفارضِ،/ نفرّني النفريّ».

التّيْه

عهد الشاعر

الأعزل لغوي ماهر يعرف أسرار اللغة باتقان نعم.. إنه متفذلك بارع يخاف منه الشيطان نفسه، الشيطان الكامن في التفاصيل، لأن التفاصيل التي يتقن الأعـزل حسابها لا تخضع لثنائية الخير والشر بل إنها في حساب الأعزل منجم الجمال السريّ الذي لا يعطي تعزيمه إلا لمتأملٍ تجرّدَ من الصفات التي انتجها الخوض في اليومي المركوس في وحل الغاية والحاجات الآنية.

وسواء أكان الأمر حقيقة أم وهماً، فأن أفكار الأعزل ومواقفه وحكاياته لا تعدو أكثر من كونها لعبةً لاستفزاز المخيلة التي استطاع من خلالها أن يؤسس له حياة افتراضية أكثر رحمةً من حياته الحقيقية في الماضي أو الحاضر، بل هي أكثر جمالاً، فبعد كل حكاية يرويها لنفسها يشعر بأن تياراً سرى في جسده، يزرقه بمصلِ عنفوانٍ يجعل من الحياة في عزلته جديرة بأن تعاش، فأفكاره أو قصصه ليست أفكاراً مجردة بل استطاع أن يجسّدها ويجعل من شخوصها كائناتٍ حيةً تعيش معه ويحاورها، وبدونها يشعر بفراغٍ شاسعٍ، كروائيّ يعيش بأقنعة شخصياته ولا يكتبها.

.... من هنا فأن الأعزل اختار السير في المتاهةِ، لا كشفاً لغموضها وانما يدفعهُ الشعورُ بغبطةٍ عميقة إلى مواصلة السير متسامياً على الغايةِ، مبتهجاً باللاوصول.

دار ميزوبوتاميا
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح
Safahat